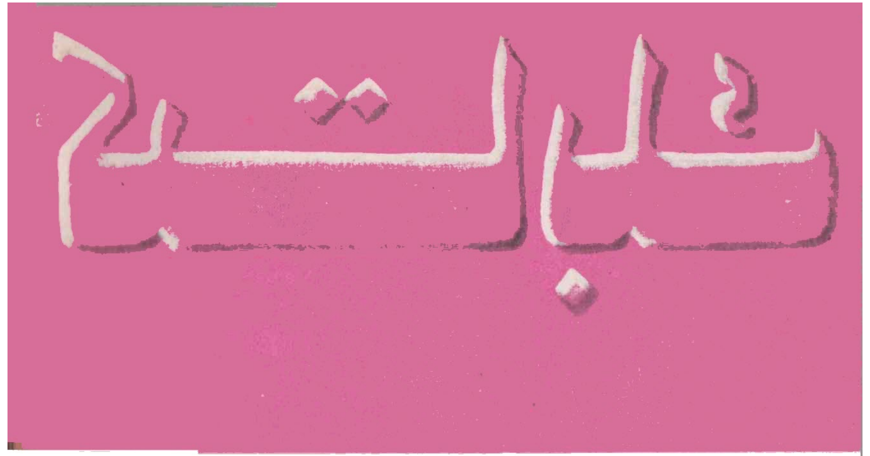


٧٢

د. رجاء ياقوت

الأدب الفرنسى
فى عصر النهضة





هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب مراحل الأدب والفكر فى عصر النهضة الفرنسية – القرن السادس عشر – ويبين كيف اهتم عصر النهضة بالفكر والفلسفة . وكيف حث الأديب على السعى وراء الكمال فى كل ما يبدع .

وتعتبر هذه المرحلة مرحلة دقيقة فى التاريخ الأدبى الأوربى .

قصص قصيرة - روايات طويلة

كل يوم قصة جديدة



الكتاب المسموع - قصص قصيرة - روايات

300 مشترك

تخصيص القناة | إدارة الفيديوهات

الصفحة الرئيسية | الفيديوهات | قوائم التشغيل | القنوات | مناقشة | لمحة

الفيديوهات المُحمَّلة تشغيل الكل

الترتيب حسب



إمرأة صابرة - يوسف السباعي - الكتاب المسموع
24 مشاهدة • قبل 18 ساعة

إمرأة خاسرة - يوسف السباعي - الكتاب المسموع
48 مشاهدة • قبل يوم واحد

كتاب مسموع - اثنا عشر رجلا (كاملا) - يوسف السباعي
46 مشاهدة • قبل 3 أيام

رجل ....! - يوسف السباعي - قصة قصيرة - كتاب مسموع
22 مشاهدة • قبل 4 أيام








رجل كريم - يوسف السباعي - قصة قصيرة
35 مشاهدة • قبل 5 أيام

رجل مجهول - يوسف السباعي - قصة قصيرة (الكتاب المسموع)
34 مشاهدة • قبل 6 أيام

رجل ورسالة - يوسف السباعي - قصة قصيرة كتاب مسموع
44 مشاهدة • قبل أسبوع واحد

رجل خاطئ - يوسف السباعي - قصة قصيرة - كتاب مسموع
29 مشاهدة • قبل أسبوع واحد



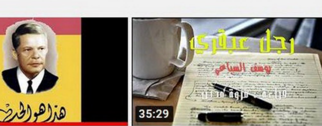



رجل مضيء - يوسف السباعي - قصة قصيرة كتاب مسموع
49 مشاهدة • قبل أسبوع واحد

رجل مهرج - يوسف السباعي - قصة قصيرة - كتاب مسموع
45 مشاهدة • قبل أسبوع واحد

رجل كافر - يوسف السباعي - قصة قصيرة - كتاب مسموع
55 مشاهدة • قبل أسبوع واحد

رجل قرير - يوسف السباعي - قصة قصيرة
60 مشاهدة • قبل أسبوع واحد








فانتازيا فرعونية - الجزء الثاني - محمد عفيفي (كتاب مسموع)
59 مشاهدة • قبل أسبوعين

رجل عبقري - قصة قصيرة - يوسف السباعي
53 مشاهدة • قبل أسبوعين

كتاب مسموع - هذا هو الحب (كاملا) - يوسف السباعي
77 مشاهدة • قبل أسبوعين

رجل عاقل - يوسف السباعي - كتاب مسموع
42 مشاهدة • قبل أسبوعين




رجل وظلال - يوسف السباعي - كتاب مسموع
29 مشاهدة • قبل أسبوعين

كتاب مسموع - يا أمة ضحكت كامل - يوسف السباعي - المجموعة القصصية...
128 مشاهدة • قبل أسبوعين

دليل الإدانة - قصة بوليسية - ألفريد هتشكوك
8 مشاهدات • قبل أسبوعين

رصاصة في الظلام - قصة بوليسية قصيرة - ألفريد هتشكوك
25 مشاهدة • قبل أسبوعين





الشبح الظريف - قصة قصيرة مترجمة
10 مشاهدات • قبل أسبوعين

اليد المتنقلة - قصة قصيرة مترجمة
15 مشاهدة • قبل 3 أسابيع

كتاب مسموع - الشيخ زعرب وآخرون كامل - يوسف السباعي - المجموعة...
52 مشاهدة • قبل 3 أسابيع

ميدو قلب الأسد - يوسف السباعي - قصة قصيرة
38 مشاهدة • قبل 3 أسابيع







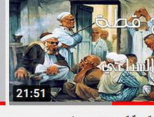
عبد البر أفندي - يوسف السباعي - قصة قصيرة
39 مشاهدة • قبل 3 أسابيع

عبد الجادر عبد الدليل - يوسف السباعي - قصة قصيرة
41 مشاهدة • قبل 3 أسابيع

الشيخ زعرب - يوسف السباعي - كتاب مسموع
34 مشاهدة • قبل 3 أسابيع

سي جمعة - قصة قصيرة - يوسف السباعي
29 مشاهدة • قبل 3 أسابيع





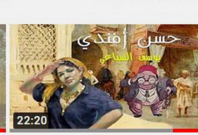
الأستاذ شملول - قصة قصيرة - يوسف السباعي
46 مشاهدة • قبل 4 أسابيع

الشيخ قطة - قصة قصيرة - يوسف السباعي
34 مشاهدة • قبل 4 أسابيع

عبد ربه الصرماتي - قصة قصيرة - يوسف السباعي
44 مشاهدة • قبل 4 أسابيع

كتاب مسموع - من العالم المجهول - يوسف السباعي (كامل) كتاب مسموع
95 مشاهدة • قبل 4 أسابيع



الواد عطوة - قصة قصيرة - يوسف السباعي
30 مشاهدة • قبل شهر واحد

زكية الحنش - قصة قصيرة - يوسف السباعي
37 مشاهدة • قبل شهر واحد

حسن أفندي - يوسف السباعي - كتاب مسموع
68 مشاهدة • قبل شهر واحد

أم نجية - قصة قصيرة - يوسف السباعي
44 مشاهدة • قبل شهر واحد





المحظوظ والكرة - قصة قصيرة - كتاب مسموع
22 مشاهدة • قبل شهر واحد

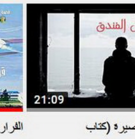
على القبر - قصة قصيرة - عبد الحميد جودة السحار
28 مشاهدة • قبل شهر واحد

الضحية الرابعة - قصة قصيرة - الكتاب المسموع
27 مشاهدة • قبل شهر واحد

الانتقام الرهيب - قصة قصيرة - الكتاب المسموع
42 مشاهدة • قبل شهر واحد








إيمونز العجوز - قصة قصيرة - الكتاب المسموع
34 مشاهدة • قبل شهر واحد

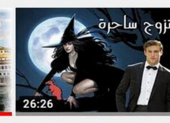
مطاردة الاشباح - قصص قصيرة مترجمة - الكتاب المسموع
23 مشاهدة • قبل شهر واحد

نزيل الفندق - قصة قصيرة (كتاب مسموع)
54 مشاهدة • قبل شهر واحد

الفرار - قصة قصيرة
18 مشاهدة • قبل شهر واحد








كيف تقلع عن التدخين - قصة قصيرة (مسموع)
47 مشاهدة • قبل شهر واحد

ريتا المخلصة- قصة قصيرة
14 مشاهدة • قبل شهر واحد

لا تتزوج ساحرة - قصة قصيرة
26 مشاهدة • قبل شهر واحد

الامبراطور العجوز - قصة قصيرة
17 مشاهدة • قبل شهر واحد







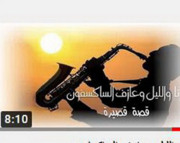


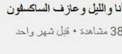

البصل الاخضر -قصة قصيرة
8 مشاهدات • قبل شهر واحد

سعادة للبيع قصة قصيرة - ألبرتو مورافيا
24 مشاهدة • قبل شهر واحد

الرضيع ألبرتو مورافيا
21 مشاهدة • قبل شهر واحد

شجرة المنزل - ألبرتو مورافيا - قصة قصيرة
21 مشاهدة • قبل شهر واحد







مدينة و إمرأة - قصة قصيرة
31 مشاهدة • قبل شهر واحد

المرأة و النهر و الرمل - قصة قصيرة
37 مشاهدة • قبل شهر واحد

أنا والليل وعازف الساكسفون
38 مشاهدة • قبل شهر واحد

إمرأة ذائعة الصيت - قصص قصيرة - ألبرتومورافيا
26 مشاهدة • قبل شهر واحد



الشباب و الشيخوخة - إيفان بونين - قصة قصيرة
17 مشاهدة • قبل شهر واحد

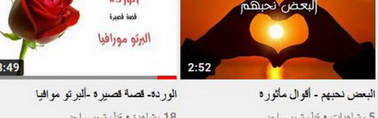


اللوحة - قصة قصيرة - ألبرتو مورافيا
14 مشاهدة • قبل شهر واحد



البعض نحبهم - أقوال مأثورة
5 مشاهدات • قبل شهر واحد






الوردة- قصة قصيرة -ألبرتو موافيا
18 مشاهدة • قبل شهر واحد



معركة في الحصن القديم
8 مشاهدات • قبل شهر واحد

ماري تقوم بأولى تجاربها
10 مشاهدات • قبل شهر واحد

غاندي يطرد الثعابين
14 مشاهدة • قبل شهر واحد

عباس العقاد هذه الوظيفة لا تليق بي
10 مشاهدات • قبل شهرين



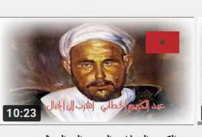


ليو والشيء الأثمن من الذهب (كتاب مسموع)
14 مشاهدة • قبل شهرين

جمال عبد الناصر من الذي يعشق الفقراء (كتاب مسموع)
10 مشاهدات • قبل 3 أشهر

إديسون و أصغر جريده في العالم (كتاب مسموع)
18 مشاهدة • قبل 3 أشهر

نابليون يصيب الهدف (كتاب مسموع)
21 مشاهدة • قبل 3 أشهر



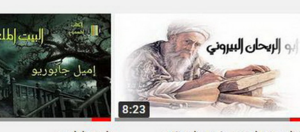


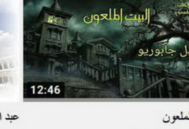
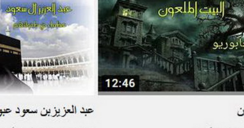
طه حسين الحلم الذي تحقق
18 مشاهدة • قبل 5 أشهر

عبد الكريم الخطابي الهرب إلى الجبال
40 مشاهدة • قبل 6 أشهر

فلورانس حاملة المصباح
40 مشاهدة • قبل 6 أشهر

عبد الحميد بن باديس لن أتعلم في هذه المدرسة
39 مشاهدة • قبل 6 أشهر



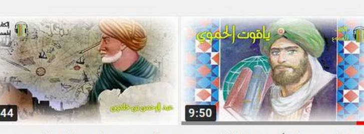




أبو الريحان البيروني قياس المسافات البعيدة
37 مشاهدة • قبل 6 أشهر

البيت الملعون
46 مشاهدة • قبل 6 أشهر

عبد العزيز بن سعود عبور الربع الخالي
15 مشاهدة • قبل 6 أشهر

شهاب الدين بن ماجد سأنقذ هذه السفينة
41 مشاهدة • قبل 6 أشهر









جابر بن حيان اكتشاف الذهب الحقيقي
1.5 ألف مشاهدة • قبل 6 أشهر

يا قوت الحموي سوف أصير حرا (كتاب مسموع)
66 مشاهدة • قبل 6 أشهر

عبد الرحمن بن خلدون مطارده اللصوص (كتاب مسموع)
27 مشاهدة • قبل 6 أشهر

صلاح الدين الأيوبي لن أحني رأسي أبدا (عظماء في طفولتهم)
52 مشاهدة • قبل 6 أشهر













الحسن بن الهيثم الرحلة في عالم الضوء (عظماء في طفولتهم)
69 مشاهدة • قبل 6 أشهر

عمرو بن الجاحظ البخلاء لا يتركون شيئا (عظماء في طفولتهم)
49 مشاهدة • قبل 7 أشهر

كتاب من العالم المجهول- 14- علمها عند ربى (كتاب مسموع)
60 مشاهدة • قبل 7 أشهر

كتاب من العالم المجهول- 13- صفقة عجيبة (كتاب مسموع)
39 مشاهدة • قبل 7 أشهر






كتاب من العالم المجهول- 12- مات قريرا (كتاب مسموع)
54 مشاهدة • قبل 7 أشهر

كتاب من العالم المجهول- 11- خذني معك(كتاب مسموع)
93 مشاهدة • قبل 7 أشهر

كتاب من العالم المجهول- 10- هذا البيت لي (كتاب مسموع)
52 مشاهدة • قبل 9 أشهر

كتاب من العالم المجهول- 09 صوت مجهول (كتاب مسموع)
56 مشاهدة • قبل 9 أشهر







كتاب من العالم المجهول- 08 كانت هناك (كتاب مسموع)
56 مشاهدة • قبل 10 أشهر

كتاب من العالم المجهول- 07 حياه مزدوجة (كتاب مسموع)
61 مشاهدة • قبل 10 أشهر

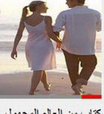
كتاب من العالم المجهول- 06 الحاجعلي (كتاب مسموع)
77 مشاهدة • قبل 10 أشهر

كتاب من العالم المجهول- 05 معجزه كبرى (كتاب مسموع)
34 مشاهدة • قبل 10 أشهر









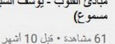

كتاب من العالم المجهول- 04 صوره روح (كتاب مسموع)
72 مشاهدة • قبل 10 أشهر

كتاب من العالم المجهول- 03 شبح في فراش (كتاب مسموع)
148 مشاهدة • قبل 10 أشهر

كتاب من العالم المجهول - 02 أرواح هائمة (كتاب مسموع)
102 مشاهدة • قبل 10 أشهر

كتاب من العالم المجهول - 01 حديث على القبر (كتاب مسموع)
93 مشاهدة • قبل 10 أشهر





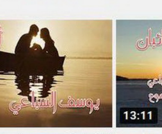


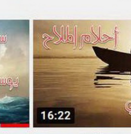
الراعي الشجاع المكتبة الخضراء (كتاب مسموع)
56 مشاهدة • قبل 10 أشهر

رحلات الدكتور دوليتل (كتاب مسموع ومرئى)
40 مشاهدة • قبل 10 أشهر

هذا هو الحب - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
93 مشاهدة • قبل 10 أشهر

مبادئ القلوب - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
61 مشاهدة • قبل 10 أشهر



قصة شعر - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
60 مشاهدة • قبل 10 أشهر

الغائبان - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
32 مشاهدة • قبل 10 أشهر

أحلام الملاح - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
40 مشاهدة • قبل 10 أشهر

سخرية - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
64 مشاهدة • قبل 10 أشهر

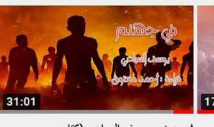



وادي القلوب المحطمة - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
142 مشاهدة • قبل 10 أشهر

حديث مجنون - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
63 مشاهدة • قبل 10 أشهر

جمالا لا يفنى - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
134 مشاهدة • قبل 10 أشهر

الخاسرة الرابحة - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
43 مشاهدة • قبل 10 أشهر



إمرأه تافهة - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
843 مشاهدة • قبل 10 أشهر

في الجنة - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
163 مشاهدة • قبل 10 أشهر

في جهنم - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
156 مشاهدة • قبل 10 أشهر

دنيا - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
442 مشاهدة • قبل 10 أشهر






بصقة على دنياكم - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
230 مشاهدة • قبل 10 أشهر

المحاكمة الكبرى- يوسف السباعي (كتاب مسموع)
164 مشاهدة • قبل 10 أشهر

لو تعلمون - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
129 مشاهدة • قبل 11 شهرًا

ميمون الجبل - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
125 مشاهدة • قبل 11 شهرًا




نابغة الميضة - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
169 مشاهدة • قبل 11 شهرًا

يا أمة ضحكت - يوسف السباعي (كتاب مسموع)
659 مشاهدة • قبل 11 شهرًا

اقرأ ٧٢

رئيس التحرير أنيس منصور

د. رجاء ياقوت

الأدب الفرنسي
في عصر النهضة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

١

بالرغم من أن النهضة الإيطالية قد قامت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فإن النهضة الفرنسية قد تأخرت عنها كثيراً ولم تظهر بالفعل إلا فى القرن السادس عشر ، وعلى وجه التحديد بعد الحروب التى سمّيت «بحروب إيطاليا» (منذ عام ١٤٩٤ وحتى سنة ١٥١٦) . والتى انتهت فى عصر الملك فرنسوا الأول . والعجيب أن انتصار الفرنسيين على الإيطاليين فيما وراء جبال الألب ، لم يمنعهم من الإعجاب بمظاهر الحضارة والفن والأدب فى مدن إيطاليا العريقة ، وأصروا على أن يجلبوا هذه الحضارة إلى بلادهم . وهكذا اضطر الفرنسيون ، بعد انتصاراتهم ، أن يأخذوا من المهزومين دروساً مفيدة فى كيفية التعبير عن الرأى وعن العواطف ، وتشبعوا بأدب كبار الكتاب الإيطاليين ، وتأثروا بروعة الفن الإيطالى حتى ظهرت فى فرنسا نفس هذه الروائع التى بهرت فرنسوا الأول وجيوشه [١] .

---

(١) لم يحدث كثيراً فى تاريخ العالم أن أحس المنتصرون بالرغم من قوتهم بالهوان والذلة لأن المنهزمين أعلى منهم ثقافة وعلماً وحضارة . فإذا كان فرنسوا الأول قد جُنَّ من مظاهر حضارة إيطاليا وَفَرَضَ على الإيطاليين واجب تعليم الفرنسيين وتثقيفهم وتأديبهم ، ففى العصور القديمة قلّد الرومان بعد حروبهم مع اليونانيين هؤلاء المنهزمين ، كما نرى ذلك فى فنون الرومان المتأثرة بالفن الإغريقى الجميل ، وكذلك تأثر الأتراك المنتصرون فى العصور الحديثة بحضارة وفنون أعدائهم العرب فى مصر وسوريا ولبنان وغيرها .

أما كلمة Renaissance التى سمّى بها المؤرخون هذه الفترة الدقيقة من تاريخ أوربا ، فهى تعنى «المولد الجديد» ، وهى توحى بأن الحضارة الإنسانية التى قد اندثرت فى العصور الوسطى ، كما يعتقد البعض ، قد وُلدت من جديد فى عصر النهضة . ونحن نعترض هنا على هذا المعنى الذى يحكم على العصور الوسطى بالهمجية والاضمحلال ، لأننا نعلم علم اليقين أن هذه العصور لم تكن فى ذلك الظلام الدامس الذى يراه البعض ، وإنما تمثل فترة انتقالية لها أهميتها فى تطور الحضارة والأدب ، وفترة مولد أفكار وكتابات أثرت على تكوين النمط الفكرى والعقلى فى هذه المنطقة من العالم . فهناك مثلاً فى تلك العصور الوسطى هذه الملاحم العظيمة التى يمكنها أن تضاهى «الإلياذة» و «الأوديسة» فى الأهمية ، مثل قصة أو «أغنية رولان» La chanson de Roland وقصة «تريستان وايزوه» Tristan et Yseult وهما تمثلان عماد القصة كنوع أدبى ، وأساسها . فإذا كانت ملحمة رولان تحكى مغامرات ابن أخى الملك شارلمان فى حروبه الكثيرة ، فهى التى مهدت الطريق لكل قصص المغامرات اللاحقة ، وكذلك فإن قصة حب تريستان وايزوه هى الينبوع الذى استقى منه الشعراء والكتاب قصص حب روميو وجوليت — Romeo and Juliet ومانون لسكووبول Manon Lescaut — وفرجينى Paul et Virginie وغيرها كما أثرت على مسرحيات موليير التمثيلية القصيرة ، والمسرحية الهزلية التى تنتهى عادة بخدعة ما «Farce» والتى

ظهرت أيضاً فى العصور الوسطى . كذلك فقد خلق أدب فترة الفروسية ، فى نفس هذا الوقت ، عبادة واحترام المرأة ، كما ظهر ذلك فى قصص الحب اللاحقة حيث تقدس المرأة وتوصف أحياناً بصفات الآلهة . . . . لذلك لا يسعنا إلا أن نبين خطأ هذه التسمية Renaissance أى « مولد جديد » إذ أنها لا تعنى بالنسبة لنا أننا بصدد شىء اندثر بالفعل قبل ذلك ويعود فيظهر من جديد ، فبالرغم من كل ما قيل ، فإن العصور الوسطى ليست إذاً بهذه الجاهلية ، كما أن عصر النهضة لم يخلق شيئاً من فراغ أو من عدم ، بل أحيا تراثاً فكرياً أوربياً عريقاً . لذلك فنحن نرى أن عصر النهضة ليس مولداً جديداً للإنسانية وإنما هو مولد جديد للفلسفة والأفكار القديمة التى كانت قد خبت ؛ وعندئذ ، وفى هذه الحالة فقط ، يمكننا إذاً التكلم عن اندثار وموت ثم بعث ومولد جديدين .

ولقد ساعد على إحياء هذا القديم أولاً وأخيراً اختراع جوتنبرج للطباعة « الأخت العاشرة لآلهة الفنون التسع »[١] كما سماها الشاعر

---

(١) L'imprimerie, "soeur des Muses et dixième d'elles"-Du Bellay XVI° Siècle, coll. Textes et Litt rature, (1965) — ed Bordas.

الآلهة التسع هم : كليو Clio (للتاريخ) ، إيترب Euterpe (للموسيقى) . ثالى Thalie (للكوميديا) ، ملبومين Melpomène (للتراجيديا) ، تربسيكور Terpsichore (للرقص) . إراتو Erato (للرثاء) ، بوليمنى Polymnie (للقصيدة الغنائية) ، أورانى Uranie (للفلك) ، وكاليوب Calliope (للبلاغة) .

دوبولليه Du Bellay اعترافاً منه بأهميتها فى نشر الثقافة والمعرفة . وإذا كانت الكتب قليلة جداً قبل جوتنبرج وتعدّ بالعشرات فى العالم كله ، فقد ساعد اختراعه على انتشارها بصورة كبيرة حتى إنها أصبحت تعد بالمئات ، واستطاع عدد كبير من القراء الاطلاع على هذه المؤلفات القيمة . ولاسيما أنه فى نفس هذا الوقت قد سادت فكرة ترجمتها كلها إلى اللغات الحية ، حتى تلك الكتب السماوية التى كانت تحفظ عن ظهر قلب باللاتينية ، دون إدراك القارئ لمعناها الحقيقى العميق . بهذه الصورة انتشرت ماكان يسميها منذ القدم الفيلسوف سيسرو Ciceron بالدراسات الإنسانية « "Studia humanitatis" » التى جلبت لهذه الفترة الدقيقة من تاريخ أوربا اسم[١] «Humanisme» وهو الاسم الذى أطلقه عليها بعد قرنين من الزمان المؤرخون الألمان ، كما سموا أيضاً الكُتّاب الذين مارسوا الكتابة فيها باسم .«Humanistes»

وبجانب هذا الاختراع الحيوى الذى ساعد على تنمية ونشر الحضارة الجديدة فى أوربا[٢] . فقد أسهمت الاكتشافات العلمية فى

(١) يترجم البعض اسم هذا المذهب بالمذهب الإحيائى ، إذ يحيى فلاسفة ومفكرو عصر النهضة التراث القديم والآداب الكلاسيكية ، كما يسمى معتنق هذا المذهب العالم بالآداب القديمة .

(٢) يجب علينا أن نوضح أن الذين يعرفون القراءة والكتابة حتى أواخر القرن السادس عشر ، كانوا عدداً ضئيلاً جداً تنتمى غالبيتهم للكنيسة فقط ، وكانت البقية القليلة من رجال العدل والأطباء ، لذلك كانت الكنيسة هى المنبع الوحيد للعلم ، كما كانت اللغة اللاتينية =

إحداث ثورة كبيرة فى مجال الفكر العالمى .

فاكتشاف القارة الأمريكية واكتشاف أقصر وأسهل طريق للبواخر المتجهة إلى الهند وهذه الأسفار البعيدة والتنقلات السريعة قاربت بين الفكر الأوربى ، حتى إنه أصبح واحداً فى كل هذا الجزء من العالم ، واكتشف الإنسان تقاربه من حيث الزمان والمكان مع أخيه الإنسان سواء فى البلاد الأخرى أو فى الأزمان البعيدة . وهكذا تعلق الإنسان بقيمه وأحسّ بعظمته ونفض عنه كل ماكان يجثم على أنفاسه من معتقدات ظالمة باطلة .

* * *

لذلك نرى من الطبيعى ، فى هذه الفترة المشحونة بالثورات فى كل الميادين ، أن تنبثق ثورة عارمة يشنّها العلماء (وحتى العلماء من داخل الكنيسة) ضد الكنيسة نفسها التى كانت قد طغت فى هذه الفترة الأخيرة بعد أن ازدهرت بفضل ضعاف الأنفس الذين أرادوا شراء الجنة الموعودة ، فسكبوا على الكنيسة كل أموالهم ومدخراتهم ظنًّا منهم أنهم يستغفرون بها الله كى يعفو عنهم ذنب أجدادهم الأولين .

= هى الوحيدة التى يكتب بها أى بحث . إما اللغة الفرنسية أو الإيطالية أو غيرهما فكانت تعتبر لغات غير جديرة بالشئون الجليلة مثل الأدب والبلاغة وغيرهما .

فقد كانت الكنيسة بالفعل هى التى تتحكم فى مصائر الناس وفى معاقبتهم سواء بالطرد من جماعات الكنيسة (Excommunier) أو حتى بالحكم عليهم بالموت حرقاً ، مثل اتيين دولية Etienne Dolet وغيره (١) .

---

(١) يضطر لوففر ديتابل Le Fèvre d'Etaples إلى الهجرة خوفاً من الكنيسة وكذلك الشاعر كليمان مارو Marot وينتحر Des Périers خوفاً من بطش الكنيسة ويهيم رابليه على وجهه بعيداً عن فرنسا زمناً طويلاً . وتمنع الكنيسة إصدار كتاب لأخت الملك نفسه الأميرة مارجريت دى نافار .

٢

ليس من الغريب إذاً أن يكون القرن السادس عشر فترة حياة وازدهار فى كل مجالات الفكر والعمل ، وفى نفس الوقت فترة نهضة للأدب والفنون وفترة إصلاح Reforme فى مجال الدين والمعتقدات . وقد تقاربت بالفعل كل المبادئ فى كل الميادين . فكما طالب العلماء بإعادة قراءة وترجمة الفلاسفة القدماء وفق كتاباتهم الأصلية – هؤلاء الفلاسفة الذين لم يعرفهم القراء إلا بوساطة المدارس التى تحكمها الكنيسة التى حرّفت على هواها هذه الأصول القيمة – فقد طالبوا أيضاً بالعودة للأصول الحقيقية للكتب السماوية . وهكذا قامت ثورة البروتستانت (١) التى مزقت الكنيسة وجلبت لأوربا ولفرنسا على وجه التحديد ، حروباً وضحايا جدداً كانت بالفعل فى غنى عنها . فى ظل هذا الجو المشحون بالثورة وبروح النقد ، بزغت شمس جديدة ، شمس النهضة التى تجلّت فى مجالات الفنون والآداب والتى أسبغت على أوربا وفرنسا بنوع خاص ، صفة بلاد النور والعلم فى الفترات اللاحقة .

وأهم ما يميز هذا العصر هو التعطش الكبير للعلم والمعرفة ، هذا التعطش الذى وصفه فى أحسن صوره الروائى الكبير رابليه

---

(١) كلمة بروتستانت منشقة من فعل Protester أى يحتج ، لذلك فالبروتستانت هم الثوار الذين نشرو هذه الأفكار الثورية ضد طغيان الكنيسة ورجالها وضد تحريفهم للإنجيل .

François Rabelais عندما تكلم عن مولد شخصيته العجيبة العملاق بانتاجرويل Pantagruel الذى يجسّد اسمه هذا المعنى العميق . فالجزء الأول من اسمه أى بانتا Panta يعنى كل أو جميع كما يعنى جرويل Gruel عطش أو ظمأ . . . أى أن بانتاجرويل متعطش لكل شيء . وقد حدّد رابليه مولد شخصيته هذه فى فترة قحط شديد كان سائداً بالفعل فى أوربا ، وهى ترمز إلى فترة الجهل الذى تحكم فى أوربا بفضل الكنيسة التى لم تكن تطلب من التعليم إلا أن يردد الطالب كلماتها الجوفاء ، دون أن يتحقق من صحتها أو أن يدرك معناها . وأهم ما يلفت النظر فى هذه الحركة الثقافية ، هو تلك الانتفاضة التى تعبر عن رد فعل قوى ضد كل ما هو قوطى Gothique أى ما يتعلق بالفن الأوربى منذ القرن الثانى عشر وحتى فترة النهضة ، وعن عودة اختيارية وحماسية للقديم Antique الذى أصبحت كل نماذجه لا تتصف إلا بالكمال والعظمة [(١)] .

هكذا بزغ فى فرنسا نور العلم بفضل مبادئ فلاسفة الإحياء Humanistes ، وأنشأ الملك فرانسوا الأول سنة ١٥٣٠ معهد القراء الملكيين Collège des lecteurs royaux – كولليج دى فرانس ، Collège de France كما أسماه الفرنسيون بعد ذلك – وهو معهد يتولى

---

(١) إذا كان القرن السادس عشر يعشق القديم ، فالقرن السابع عشر الذى ظل يقلد القديم انتهى بفترة يشكك فيها العلماء فى مقدرة القدماء وفى ذكائهم . فهم يؤكدون أن الإنسان المعاصر لابد أن يكون قد سبق أجداده فى العلم لأنه اكتسب خبرات أكثر وتجارب أفيد .

أموره العلماء دون أى تدخل من الكنيسة ورجالها ، وهم يعلمون أولاد النبلاء اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية . وقد اهتموا أولاً وأخيراً بطريقة تربية النشء وتعليمه حتى يصبح جديراً بحمل راية العلم بعد هذه الكنيسة التى ألحقت أضراراً جسيمة فى عقلية تلاميذها السلبيين ، وأصر الفلاسفة على خلق عقول تناقش ولا تقبل طواعية أى أمر كان ، وتغنى الكتاب بهذه القيمة الجديدة ، الحرية ، حرية القراءة ، حرية التعبير وحرية الاعتقاد كرد فعل أكيد ضد أى إلزام أو جبر أو قهر . وقد كان من الواجب عليهم أن يتساءلوا إلى أى مدى ستكون الحرية وما تكون ضوابطها ، فتلك هى المشكلة التى أدت بالفعل بفرنسا إلى القرن الثامن عشر ، وإلى الثورة الفرنسية ضد ظلم الحكام وافتراء الكنيسة ورجالها [١] .

وقد بذر الفلاسفة فى هذه الفترة فى قلب الإنسان ثقة كبيرة فى نفسه ، وعملوا على إعطائه إحساساً كبيراً بكرامته وعظمته . ونحن نرى هذه المبادئ واضحة منذ أواخر القرن الخامس عشر عند الكاتب والفيلسوف بك دى لا ميراندول Pic de La Mirandole الذى تجاسر

---

(١) كان القرن السابع عشر عصر استبداد وطغيان الملك ، لذلك حرم الكتّاب من الخوض فى هذين الموضوعين الأساسيين : الدين والسياسة . فيما عدا هذا فلهم مطلق الحرية فى نقد أية ظاهرة فى الدولة . أما القرن الثامن عشر حيث الملوك ضعفاء ، فقد خاض الكتّاب فى هذين الموضوعين الممنوعين ووصلوا بفرنسا إلى الثورة ضد كل هذه الأوضاع .

فأطلق على كتابه هذا العنوان المثير الذى تتبلور فيه خصائص فلسفته : أحاديث عن الكرامة Discours sur la dignité de l'homme ، والذى يعتبر بحق بمثابة وثيقة إيمان بالإنسان وبقيمته ، وهو يقول فيه مقلّداً لهجة الصفحات الأولى من الانجيل حيث يتحدث الله عن خلق آدم وحواء . . . فيبين لنا «بك دى لاميراندول» أن الخالق الجبار قد أعطى الإنسان مكانة مرموقة ، كما أعطاه حرية الاختيار ، فقد وضعه فى وسط العالم حتى يرى كل ما يحيط به من كائنات . ولما كان الإنسان لم يخلق كائناً ملائكياً ولا كائناً أبدياً فمن ثم ، فإن السبيل ميسر له ليهبط بنفسه إلى درك الحيوانية أو يسمو بنفسه إلى الذروة السماوية ، فمصيره فى يده ومستقبله رهن اختياره الحر .

تعبر هذه الوثيقة عن نظرة الفلاسفة فى ذلك الوقت للإنسان ، الذى ما هو إلا نموذج صغير"Macrocosme" للعالم الكبير الذى يحيط به "Microcosme"، فهو إذاً جدير بكل احترام وإعزاز . وهذه الفلسفة تعيد أفكار أفلاطون القديمة ، وهى فى نفس الوقت متأثرة بمذهب الدين المسيحى . وقد أدّى ذلك إلى نظرة فريدة إلى الخالق الأعظم وإدراك جديد له . ونحن نسوق هنا ، على سبيل المثال هذه الصلاة الجميلة التى كان يلقيها صبيحة كل يوم ، قسيس اسمه مارسيل فيسان Marsile Ficin قريبة جداً من صلاة الصوفيين . يقول فيسان موجهاً كلامة إلى الله عز وجل : «يا أيها النور العظيم ، أنت الذى تستطيع وحدك أن ترى نفسك

وأن ترى كل شىء فى داخلك ، يا أيها النور المنبسط على العالم ، أنت الحياة الأبدية لمن يراك ، وأنت الكنز الثمين لكل من يعيش ، أتوسل إليك يا أيها الضوء الصافى أن تطهِّر حياتى المظلمة حتى أراك . . . أدخل الدفء لقلبى البارد حتى أتغذى منك ، فأنت تجذبنى وتضمنى وتحرقنى . . . إنى أهرع إليك وألهث يا أيها الجمال الوحدانى »[١] . . .

ومن ناحية أخرى يمكننا أن ندرك كيف انبثقت أفكار الشعراء المعجبين بأفلاطون وبروحانيته فى الحب الدنيوى ، تلك الأفكار التى سميّت بعد ذلك بالأفلاطونية الجديدة التى تربط بين الله ومخلوقاته . فقد تجلّت قدرة الخالق فى مخلوقاته ، يتمثل فيها جماله لذلك فإن الشعراء يعتبرون أن الله هو غايتنا عندما نحب شخصاً . فالحبيب إذاً مرآة الإله وصورة للجمال الرّبانى . . فليس الحب فى هذه الحالة إلا عودة للخالق الجبار وإيماناً بروعته وعظمته . .

هذه الصور يصطبغ بها الشعر الفرنسى فى هذه الفترة ، كما وضحت قبل ذلك فى الشعر الإيطالى ، وبالأخص فى شعر بترارك Pétrarque الذى تغنّى بجمال حبيبته لورا Laura ، وهو الشاعر الذى أثّر كثيراً على شعراء فرنسا كلهم مثل رونسار Ronsard ودى بولليه Du Bellay . . وغيرهما . وهكذا اكتسب الأدب — نظرية فلسفية

---

(١) انظر كتاب La Renaissance للأساتذة

R Morçay et A. Müller (del Duca), 1960.

جديدة تشبه نظرية تناسخ الأرواح ، مؤداها أن الأرواح كانت كلها تعيش فى عالم أولى ترى فيه بسهولة الخالق العظيم ، ولكن عندما خلق الله الجسد بعد ذلك ، نسيت الأرواح هذه الرؤيا الخالدة ، ولذلك عندما تلتقى روح بعد ذلك بصورة حية للجمال ، فهى تعود بالذكرى إلى أصلها السماوى ، وهكذا يساعد الحبيب الروح على صعودها إلى السماوات العليا . ذلك أن هؤلاء الفلاسفة يعتقدون أن للجمال والحب نفس المنبع ، ألا وهو الله سبحانه وتعالى . لذلك جرؤت أخت الملك فرنسوا الأول وهى أديبة فى نفس الوقت – مارجريت دى نافار Marguerite de Navarre – على أن تؤكد أن الإنسان لن يستطيع أن يعبد الله عبادة كاملة طالما أنه لم يحب أحد مخلوقات الله أولاً .

والجدير بالذكر أنه بالرغم من الجو السائد فى القرن السادس عشر – أو بالأحرى فى النصف الأول من القرن – المملوء بالتساؤلات وبالأخص فى ميادين الفكر والعقيدة ، فلم تكن فرنسا بعيدة بتاتاً عن الدين ، بل إنه حتى رجال الفكر الذين أثاروا مشكلة وجود الكنيسة وواجباتها ، لم يكونوا فى يوم ما من الملحدين ، ولكنهم حرصوا على أن يبينوا فقط لمعاصريهم أخطاء هذه الكنيسة التى تسيطر على معتقداتهم . والغريب أن كل من برز فى هذا الميدان ، وأولهم مارتن لوثر Martin Luther ، مؤسس ديانة البروتستانت فى هولندا وجان كالفان Jean Calvin ، مؤسسها فى فرنسا ، ومترجم الوصية الجديدة إلى اللغة الفرنسية إلخ . كلهم من

رجال الكنيسة تربوا وترعرعوا فيها . وقد حاول هؤلاء المفكرون بمساعدة آخرون من رجال الدين قد يكونون كاثوليك لا بروتستانت ، مثل بوديه Bude ولوففر ديتابل Le Fevre d'Etaples ، وارازم Erasme ، وغيرهم . . . إيجاد تصوّر جديد للإنسان مأخوذ من الكتب السماوية ومن الفلسفة القديمة فى آن واحد .

ومن ناحية أخرى فنحن نلاحظ جلياً أن الأعمال الأدبية فى هذه الفترة تتميز بطابع خاص ، إذ أنها موجهة أصلاً لقلة قليلة من الفرنسيين ، هى التى كانت وحدها تستطيع القراءة والكتابة ، ولم تكن موجهة لعامة الشعب ، الذى لا يهمه سوى ما يؤرقه من مستلزمات ضرورية للحياة ، مثل الغذاء والكساء . فالأدب فى ذلك الوقت كان يُعَدُّ إذاً نوعاً من الرفاهة ، ولا يهم بالتالى إلا صفوةً مختارة من المجتمع هى التى تحيط بالملوك وتكوّن البلاط السامى . لذلك فإن الكُتَّاب يضعون كل ثقلهم على هذه الطبقة الصغيرة ويحلمون بتحويلها إلى نموذج مصغر من المجتمع المثالى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . وهكذا نحن بعيدون كل البعد عن منطلق كُتَّاب القرن الثامن عشر مثلاً الذين يتوجهون فى أبحاثهم إلى البرجوازية والشعب نفسه ، الذى تعلّم القراءة واهتم بتصحيح أوضاعه وحالته .

لذلك نرى رجل البلاط فى القرن السادس عشر هو الذى تتمركز حوله كتابات هذه الفترة من تاريخ فرنسا ، وقد اهتم به الملك فرنسوا

الأول كل الاهتمام ، حتى إنه طالب كاستليون Castiglione أحد المفكرين الإيطاليين بإصدار كتيب El Corteggiano يصّور فيه مثال رجل البلاط الأكمل ، الذى يكوّن أخطر طبقة فى الدولة . وهكذا صدر هذا الكتيب ، الذى يعتبر الدعامة التى قام عليها الفكر الفرنسى والأخلاق الفرنسية فى هذا الحين . فرجل البلاط يمثل هذه الشخصية التى تسود فى كتابات القرن السادس عشر ، وهو الذى يتغنى به وله الشعراء ، ومن أجله يحدد الفلاسفة منهج التعليم ومقدار الثقافة المرجوة[١] لذلك يصوره كاستليون رجلاً مثقفاً ، متحدثاً لبقاً ، وفى نفس الوقت رجلاً بارعاً فى الفروسية والحرب وفى الألعاب والفنون والرقص . . رجلاً يعرف كيف يحب ويحترم من يحب ، وظيفته أساساً خادم مطيع لمولاه الملك ، ولكنه فى نفس الوقت يجب أن يكون من الحكمة والدهاء بحيث يعرف كيف يساعد مليكه فى اجتياز الصعوبات التى قد تعترضه فى حكم البلاد ، وأن يشجعه على التزام طريق الفضيلة والصلاح .

إذا كانت هذه صورة رجل البلاط المثالى فى كتاب كاستيليون ، فإن

---

(١) إذا كان ارازم قد أصدر كتيباً لتعليم أمراء المسيحيين فى أوائل القرن ، فقد لحقه رابليه فى تربية شخصياته العملاقة ، بعد أن أمعن فى قراءة كتاب توماس مور Thomas More الإنجليزى الذى يهتم أيضاً بتربية الأمير الأمثل فى البلد الأمثل أو كما لحقهم Utopia الفيلسوف الإيطالى ماكيا منيللى فى كتابه الخالد . الأمير Le Prince

رجل البلاط الحقيقى لم يكن أبداً بهذه الصورة المثالية ، فقد أجبرته طبيعته وكذلك طبيعة عمله على النفاق الرخيص ، حتى إن الكُتّاب ظلّوا لأمد بعيد بعد ذلك ، يتندرون بهذه الشخصية التى تباعدت كثيراً عن صورتها المثالية الأصيلة المشرقة ، ونحن نرى نقداً لاذعاً لها فى مسرحيات وكتب الفترة اللاحقة ، حتى إن أدب القرن السابع عشر لا يخلو أبداً من هجوم عنيف على هذه الفئة المرتزقة فى فرنسا [١] .

أما عن رجل الأدب نفسه فقد زاد شأنه فى عصر النهضة ، لأن الأدب أصبح ، فى هذه الفترة ، شيئاً هاماً وليس مجرد أغان أو قصائد كتبت ليتغنى بها أو لتتلى فى الأسواق والمحافل والاجتماعات ، فقد أصبح الأدب موجهاً للملوك والبلاط الملكى ، وأصبح الأديب تواقاً للشهرة والمجد اللذين لم يكونا حتى ذلك الوقت إلا من نصيب من يكتب فى الدين واللاهوت وباللغة اللاتينية فقط . أما وقد بدأ الأدباء يكتبون بالفرنسية ، ويحاولون جهدهم فى تثقيف وتسلية قرائهم فى نفس الوقت ، أصبح الأدب منذ القرن السادس عشر نعم المرآة للمجتمع وصدى حقيقياً لكل ما يجرى فيه من أحداث وتطورات .

---

(١) من أجل الإنصاف يجب أن نوضح أن هذه الفئة كانت أصلاً من ألد أعداء الملك ، إذكانوا هم أنفسهم أمراء من العائلة الحاكمة ، وكانوا يسومون الملك ألواناً من العذاب حتى أجبرهم على الحياة فى العاصمة وترك أراضيهم كى يستطيع كبت أية ثورة قد يقومون بها ضده مثلما حدث فى الماضى وكما سيحدث حتى فى القرن السابع عشر عندما تقوم الثورة La Fronde ضد الملك لويس الرابع عشر فى أوائل عهده .

٣

ولدراسة أدب القرن السادس عشر ، يمكننا أن نقسمه إلى قسمين رئيسيين : الشعر والنثر ، وهما يلعبان دوراً كبيراً فى تاريخ الأدب الفرنسى . فالشعر فى القرن السادس عشر (فيما عدا فرانسوافيون François Villon الشاعر التروبادور – Troubadour – بعدُّ من أولى مراحل الشعر فى تاريخ الأدب الفرنسى ، لأنه يكتب لأول مرة باللغة الفرنسية . ونرى نفس الظاهرة تتكرر فى النثر حيث بزغ نجمان هما رابليه Rabelais ومونتنى Montaigne فقد كتب أولهما قصة تشبه الملحمة . أما الثانى فقد ابتدع نوعاً فلسفياً جديداً أسماه بكل تواضع ، تجارب أو محاولات Les Essais هذان المؤلفان يعتبران بحق من أولى مراحل القصة والمقالة فى تاريخ الأدب الفرنسى . أما عن المسرح ، فقد تسببت الأحداث السياسية والحروب الكثيرة في تأخر فرنسا عن جارتها إنجلترا فى هذا المجال ، إذ أن القرن السادس عشر يعدّ عصر شكسبير Shakespeare ، أعظم كاتب مسرحى فى تاريخ العالم . أما فرنسا فلم تنس المسرح طوال هذه الفترة ، ولكنها ظلت تتخبط فى تقليد القدماء . مثل تيرانس Trence ، وأوربيد Euripide وتقليد الإيطاليين وبالذات مدرسة الكوميديا دى لارتى

Commedia dell'arte التى ستشحذ خيال موليير فى طفولته وتؤثر على مسرحياته الخالدة التى مُثلت فى القرن السابع عشر .

فى هذا المقام ، يهّمنا أن نبين أن هذه الحقبة من الزمن التى تعتبر بحق سنوات مولد الأدب فى فرنسا اختلف فيها المناخ بين سنة وأخرى أو بين فترة وأخرى ، ومن ثم يلزمنا تقسيم هذا القرن إلى ثلاثة أقسام زمنية حتى نستطيع أن نلقى الضوء على الخصائص التى تميز كلا منها . فالفترة الأولى تتميز بطابع الانبهار والحماس للمعرفة ويمثلها الكاتب الكبير رابيليه الذى يصور هذا التفاؤل والتحمس أحسن تصوير . أما الفترة الثانية فيهتم الأدباء فيها أولا وقبل كل شيء بتجويد وتنظيم الفن ، وبخلق نموذج مثالى للتعبير ، ولاسيما التعبير الشعرى . ويمثل هذا الجزء مدرسة الشعراء السبع التى سمّت نفسها بالثريا أى La Pléiade تشبهاً بمجموعة نجوم سبع تزين السماء ، واعترافاً منها بقيمة الشاعر الذى تعتبره نبياً له رسالة عظيمة وخالدة . نشأت فى هذه الفترة مواضيع جليلة أدَّت بنا ، فى ثلاثة قرون من الزمان ، إلى الرومانسية ، التى تدور مواضيعها بين الحب والطبيعة والموت ، والتى يسود فيها جلال الإنسان ونبله وترفعه . أما الثلث الأخير من القرن السادس عشر فيمثل فترة دقيقة وحسّاسة إذ أن الأدباء قد عادوا فتشككوا فى أغلبية ما كان قد رسخ فى العقول من أفكار وآراء .

وتصور كتابات مونتنى Montaigne هذا الاتجاه أبلغ تصوير ، فنراه

ينفض عن نفسه كل تفاؤل زميله رابليه ، وينادى بفلسفة أكثر عمقاً وأقل تفاؤلاً ، ألا وهو مذهب التشكك والارتياب Scepticisme . فكل ما يعلمه الإنسان ضئيل جداً بجانب ما يجهله ، وبدأ مونتنى يتساءل : «من أنا ؟ ماذا أعرف» ؟ . . . ونادى بالتحقق من حدود وقدرات الإنسان ، وبالتعمق فى الأبحاث فى الوقت الذى لم يكف فيه بالرغم من كل شىء ، عن الإيمان بنبل الإنسان وعظمته . سيؤدى هذا المذهب بالأدب الفرنسى إلى الكلاسيكية التى تميز القرن السابع عشر والتى يسود فيها العقل على العاطفة ، والتى تسعى إلى المثالية فى كل شىء . وسنعرض الآن وفيما يلى الأقسام الثلاثة السالفة البيان .

١ – فترة الحماس والتفاؤل :

يمثل الأديب القصصى رابليه François Rabelais هذه الفترة خير تمثيل ، فهو يجمع بين الإعجاب المفرط بالفلاسفة والكتاب الأقدمين ، وبين حب الحياة والتعطش للعلم ، تلك الظواهر التى تمثل أهم مبادئ عصر النهضة . فحياة هذا الكاتب – قبل كتاباته – حياة عالم يتوق لجمع أكبر قدر من المعلومات ، وفى كل الميادين . فهو أولاً رجل كنيسة منذ فجر شبابه ، ولكن مهنته هذه لم تمنعه من الخوض فى غمار بقية العلوم ، فدرس الطب فى مونبلييه ، وباشر عمله كقسيس وكطبيب فى نفس الوقت الذى نشر فيه الجزء الأول والثانى من كتابه «حياة العملاق

جارجانتوا Gargantua وحياة ابنه العملاق بانتاجرويل Pantagruel ولم يكتف رابليه بهذا القدر بل درس أيضاً – بجانب كتب اللاهوت – كتب الهندسة والقانون وعلم الفلك وكتب الموسيقى . وكان رابليه فضلاً عن ذلك ، يتقن مثل زملائه اللغة اللاتينية ، ثم تعلم اللغة اليونانية واللغة الإيطالية ، وبضع كلمات باللغة العربية واللغة العبرية . لذلك فحياته تعدّ بالفعل خير نموذج لحياة عالم الإنسانيات وعالم عصر النهضة .

يظهر لنا رابليه فى الجزء الأول والثانى من كتابه Gargantua et Pantagruel كطفل كبير يعشق الضحك والنكتة ويعشق الحياة بكل جوانبها . إن من يقرأ كتاب رابليه يسمع رنين ضحكاته طوال الصفحات الأولى . وقد اهتم بتحذيرنا فى مقدمته بأننا لا يجب أن نخدع بهذه الروح المرحة ، ولكننا يجب أن نقرأ بين السطور وبتؤدة كى نكتشف جوهر الموضوع ومكمنه الذى لابد وأن يكون فى غاية الخطورة والأهمية . وبالفعل ، فمن اليسير أن نكتشف وراء هذه القصص المضحكة أحياناً ، والتافهة أحياناً أخرى ، كنوزاً عجيبة من الفكر والفلسفة . فهذه القصة الشاملة مثل الملحمة ، تحتوى على صور كثيرة من التراث الشعبى والفولكلورى لفرنسا ، ومن حقائق التاريخ الفرنسى فى هذا الوقت ، كما تحتوى على معلومات قيمة فى القانون والطب والفلسفة وفيها نرى طوال هذين الجزأين مرح هذا القسيس المتحرّر الثورى وسعادة العلاّمة المتبحّر ونشوة هذا الرجل الذى ظل يشرب من

منهل العلم والمعرفة حتى الثمالة .

فنحن نجد فى الجزء الأول والثانى من هذا الكتاب نقداً جارحاً قارصاً لطرق التعليم القديمة قبل عصر النهضة ، وهى التى يطالب فيها التلميذ بالحفظ المجرد من أى فهم ، وبالترديد الأحمق لكل ما تلقنه له الكنيسة أو السربون بدون وعى وبدون إدراك . لذلك يتغنى رابليه بانفتاح فرنسا للمعرفة فى هذا الحين ويشيد بالتعليم « الواعى » الذى بدأ فى الانتشار . ومن هنا كانت أول صرخة أطلقها المولود الجديد العملاق جارجانتوا Gargantua ، عند وصوله للحياة هى « اشرب ، اشرب » أى أنه يريد أن يرتوى من منهل العلم والمعرفة[1] .

وبهذه الطريقة أخذ العملاق الأب جارجانتوا يحث ابنه بانتاجرويل Pantagruel على الدراسة المثمرة فيكتب له : « أريدك أن تتعلم جيداً اللغات مثل اليونانية واللاتينية والعبرية كى تفهم الكتب السماوية وكذلك اللغات الكلدانية والعربية . أما الفنون فقد جعلتك تتعلق بها منذ نعومة أظفارك ، أرجو أن تمارسها ، وأن تتعلم كذلك كل مبادئ علم

---

(١) يرى رابليه أن تكون رسالة الملك الدائبة تجاه رعاياه أن يسقيهم مما يرتوى منه من بحور العلم والمعرفة . لذلك نرى بانتاجرويل فى معركته مع العملاق Loupgarou أنه يهدف إلى أن يقضى عليه حرماناً وظمأ فيرميه لذلك بقذائف متدفقة من الملح كأداة فعّالة تؤدى إلى الحرمان ، وحتى لا يبقى منه لشعبه حتى قطرة واحدة من ينابيع العلم وروافد المعرفة التى لن يكون مصيرها إلا الجفاف المطلق .

رابليه ، Gargantua الكتاب الاول chap. VII

الفلك ، أما عن القانون المدنى فأرجو أن تحفظ نصوصه الجميلة وتقارنها بالنصوص الفلسفية ، كما أرجو أن تهتم بعلم الطبيعة ، وأن يكون عندك شوق لتفهمها الفهم الكامل . تعمق يا ولدى أيضاً فى كتب أشهر الأطباء اليونانيين والعرب والرومانيين ، ولا تنس وسط كل هذا وفى كل ساعة من ساعات النهار ، أن تقرأ الكتب السماوية وأن تتعمق فيها . . . أريدك بالاختصار أن تكون بحراً لا ينضب من المعرفة (١) "Un abîme de science"

هذا هو المنهاج الشامل للدراسة الخاصة بالعلاّمة الـ Humaniste فى أوائل القرن السادس عشر . وقد صوّر لنا رابليه التربية المثالية فى رأيه على أنها خليط من التربية البدنية والتربية العقلية . فقد اهتم العلماء بالفعل بعد ذلك بصحة البدن ، كما اهتموا بالعقل الإنسانى ، فالعقل لا يكون سليماً إلا فى الجسم السليم . لذلك طالب رابليه ببقاء تلميذه العملاق فى الهواء الطلق أطول مدة ممكنة ، وبأن يمارس كل الألعاب الرياضية التى تنمّى عضلاته مثل السباحة والفروسية وغيرهما ، وأن يتعلم الرياضيات والفلسفة واللغات وعلم الفلك . والشىء الجدير بالذكر هو أن طريقة تعليم الحساب فى كتاب رابليه هى نفس الطريقة التى يطالب بها علماء التربية حالياً ، أى التعليم باللعب وعلى الأخص بلعبة الورق . أما بقية المواد فالطالب لا يستذكرها وحده من كتاب ، وإنما يسمع مدرسه وهو يخاطبه فيها ويتناقش معه فى كل ما يخصها . إذا كنا نعتبر

---

(١) رابليه Pantagruel chap. VIII الكتاب الثانى ، مقتطفات من الخطاب

هذه التربية بمفاهيم عصرنا الذى نعيشه ، كتربية حديثة بعض الشيء ، فإنها تفتقر لشيء هام وهو التركيز أو التخصص ، إذ أن الطالب ، بعد سنوات دراسته تلك ، يعلم الكثير فى كل الميادين ولكنه لا يتعمق فى دراسة أى علم . وقد عاب النقاد وعلى الأخص الفيلسوف مونتنى على هذا المنهج الذى يجعل الطالب "Une tête bien pleine" عقلاً مملوءاً بالمعلومات ، وليس عقلاً مميزاً منسقاً "Bien faite" (١) . فضلاً عن هذا فإن تلك الطريقة المثلى للتربية لا يمارسها إلا أولاد النبلاء والملوك الذين يملكون الإمكانيات الباهظة التى تتطلبها هذه التربية ، أما أولاد عامة الشعب فلم يهتم بهم رابليه ، مثله فى ذلك مثل بقية كتاب عصره توماس مور وارازم وماكيا فيللى ومونتنى . . . وهذا العيب يميز كل مفكرى العصر الذين لم يهتموا إلا بالنبلاء وبرجال البلاط .

ومن ناحية أخرى يهتم رابليه بنقد رجال الكنيسة ، ليس فقط من أجل سوء اختيارهم لطرق التعليم ، ولكن لعقلياتهم الجوفاء ، فهو يقدم لنا منذ الجزء الأول شخصية لطيفة ، هى شخصية جان ديزا نتومور Jean des Entommeurs الذى يعتبره رابليه مثالاً للقسيس المتفتح والمتحرر ، بعكس بقية زملائه الذين لا يفقهون شيئاً . ففى وسط الصلاة التى يقوم بها زملاؤه جميعاً فى الكنيسة ، يسمع القسيس جان صوت شرذمة كبيرة من اللصوص يسطون على الحقل المزروع بالخيرات الذى

---

(١) مونتنى Les Essais الجزء الأول . chap. XXVi?

يحيط بالكنيسة ، والذى سوف يتغذى منه رجال الكنيسة طوال العام ؛ فبدلاً من أن يستمر فى صلاته مثل الباقين نراه يشمِّر عن ساعديه ويخرج للدفاع عن قوته وقوت زملائه الذين لا يكفّون عن الصلاة والدعاء بأن يهدى الله اللصوص ويثنيهم عن عمل الشر[١] . فرابليه يفضل إذاً العمل الجاد والإيجابى على السلبية والبكاء يبرهن لنا القسيس جان شجاعته فى أكثر من مشهد وعلى الأخص فى الحرب التى قامت بين مليكه العملاق الطيب العاقل ، وبين جاره الأحمق المتهوّر الذى كان يطمع فى الاستيلاء على أراضى جارجانتوا وجيرانه .

لذلك يعرض جارجانتوا على جان مكافأة له على شجاعته ، بناء أسقفية جديدة له ، هى التى تعتبر بحق « اليوتوبيا » الإيجابية فى عمل رابليه . فإذا كان رابليه ينتقد فعلاً كل شىء يحيط به فى مجتمع القرن السادس عشر ، فهو يبين لنا فى هذا الجزء ما يجب أن يكون عليه الحال فى أية أسقفية أو بصورة أشمل فى أى مجتمع عادى يسود فيه الدين واحترام المبادئ الأساسية[٢] . وأهم ما يميز هذه الأسقفية التى تشبه

(١) رابليه Gargantua الكتاب الأول, chap. XXVII .

(٢) كان رابليه من أكثر المعجبين بالفيلسوف الإنجليزى المعاصر توماس مور Thomas More الذى كتب نوعاً يذكرنا « بجمهورية » أفلاطون ، هذا النوع الذى سُمّى باسم روايته « اليوتوبيا » Utopia أى البلد الذى لا وجود له أو البلد المثالى ، وهو يربط فيه بين الحكمة الطبيعية وبين الديانات . وبدلاً من أن يهتم بتربية النشء فقط مثل غيره فقد اهتم مور بإدارة دولة بأكملها على الوجه الأصلح ، وأعطى للناس فى هذه الدولة هدفاً سامياً ألا وهو البحث =

قصور عصر النهضة المبنية على ضفاف نهر اللوار – أن جميع أبوابها مفتوحة وأنه من اليسير على الناس دخولها أو الخروج منها ، وذلك بعكس الأديرة التى تغلق بمزلاج حديدى والتى تعطى الساكن فيها الشعور بأنه سجين مكبل بالأغلال إلى أبد الآبدين . أما فى أسقفية جان ، أسقفية تيليم L'abbaye de Thlème التى يتمناها جان ومايكه ، فالإنسان فيها يشعر بأنه حر طليق وأنه هناك بمحض إرادته . وهذا يؤيد نظرية رابليه ورجال الفكر فى هذا الوقت ، الذين يطالبون بالحرية المطلقة ويدينون كل ما هو قهر أو إجبار . فضلاً عن ذلك فمن يدخل هذا الدير من رجال ونساء على السواء فإنهم يعيشون على أسس مبنية كلها على الاحترام المتبادل ، وعلى الفضيلة والعفة ، يمكنهم الزواج فى أى وقت ، ويحيون حياة كلها سعادة وألفة ، ذلك أن الأبواب المغلقة ، والقوانين الصارمة ، لا تؤدى إلا إلى القسوة والمرارة والحقد[1] . يتوج هذا القصر شعار بليغ ينم عن حب المعاصرين للحرية ألا هو "Fais ce que voudras" أى « افعل ما يحلو لك » ، لأن جميع من فى

= عن السعادة . وهذا مفهوم جديد لم يأت إلا مع عصر النهضة أما الحكم المثالى بالنسبة لمور فما هو إلا حكم الملكية المطلق على أن يكون الحاكم مستنيراً ملمًّا بالعلم والإيمان وهما أعظم سلاحين فى أيدى الحكام .

(١) هذه الفكرة سوف تنتشر فى القرن الثامن عشر وعلى الأخص عند ديدرو **Diderot** الذى أعطانا فى قصته « الراهب **"La Religieuse"** صورة بغيضة لكل ما يجرى داخل الدير من مؤامرات وحشية وكل ما ينتشر فيه من أفكار شيطانية تتنافى مع أبسط مبادئ الدين .

أسقفية تيليم مختارون من أحسن طبقات المجتمع ، وهم يتحلّون بجميع الصفات الحميدة والنبيلة التى تثنيهم عن عمل الشر وعن النفاق والكذب والخداع[١] لا يطالبهم رابليه بالفقر والترفع عن أمور الجنس وبالطاعة العمياء مثل ما تطالب به الكنيسة رجالها ، ولكنه يحثهم على العمل المثمر وعلى حياة طبيعية هادئة ، وقد منع رابليه وعملاقه جارجانتوا وجود أية ساعة أو أية أجراس تنبئ عن الوقت فى داخل الأسقفية كى يتحرر الإنسان أيضاً من قيود الوقت ، ويحس برغبته الشخصية الصادقة فى الصلاة والتعبّد دون أى قيد أو إجبار . وأكثر من ذلك فإذا أحس أى فرد بالرغبة فى الخروج إلى معترك الحياة العامة فيمكنه أن يترك هو وزوجته الأسقفية ، والكاتب واثق أنهما سوف يعيشان فى الخارج نفس الحياة الكريمة الفاضلة النقية .

بالرغم من كل هذا الهجوم ضد الكنيسة ومبادئها فلم يكفّ رابليه عن إظهار حبه وتفانيه للخالق الجبار ، ولم ينس فى كل دقيقة حمد الله وشكره على كل نعمه . إذاً فرابليه لا يهاجم الدين وهو ليس ملحداً ، كما اتهمه رجال الكنيسة وقتئذ ، بل يؤمن إيماناً راسخاً بقوة وعظمة الله ، ولكنه يهاجم العقلية المتخلفة لرجال الدين الذين يسيئون له أكبر إساءة . فهو إذاً ضد رجال الكنيسة المتخلفين . وإذا كان رابليه سيئ الحظ بعض الشيء إذ لم يعط حق قدره فى حياته ، فى القرن الثامن عشر

(١) رابليه Gargantua الجزء الأول .chap. LVII

اعتبره رجال الثورة الفرنسية رائدهم ، لأنه بدأ ما أنجزوه بالفعل ضد الكنيسة ورجالها .

أما بقية أجزاء الكتاب فلا يظهر فيها رابليه بهذه الصورة الضاحكة إلا بمناسبة شخصيته الجديدة الطريفة التى نراها لأول مرة فى الجزء الثالث ألا وهو بانيرج Panurge أو على الأخص فى الصفحات الخاصة بأغنام بانيرج(١) ولكن نقد رابليه يأخذ الآن طابعاً لاذعاً قوياً ، إذ أن الموضوع الذى يحير شخصيات رابليه موضوع شائك يدور حول السؤال التالى : هل من الأفضل أن يتزوج المرء أو أن يبقى عازباً ؟ هذا الموضوع الاجتماعى العادى يملأ بقية صفحات الكتاب وهو يجبر بانتاجرويل وأصدقاءه ، وأهمهم طالب الزواج ، بانيرج ، إلى السفر بعيداً وفى أماكن كثيرة كى يقرروا إذا كان لبانيرج أن يتزوج أم لا (٢) . فى هذا

---

(١) تلك القصة التى صارت مثلاً ورمزاً لغباء الناس وحبهم الأعمى للتقليد . فقد اشترى بانيرج وهو على الباخرة التى تقله إلى البلاد البعيدة خروفاً واحداً من ضمن قطيع كبير من الأغنام كان على ظهر نفس الباخرة . ثم همّ فرماه فى أعماق البحر ولم يستطع صاحب القطيع ولا أعوانه إيقاف سيل قطيع الأغنام الذين ألقوا بأنفسهم وراء زميلهم فى البحر . لذلك فالمثل الدارج الآن هو «مثل أغنام بانيرج» التى تموت فى سبيل التقليد الأعمى ، وهذا ما اصطلح على تسميته بغريزة القطيع .

رابليه ، Pantagruel ، الجزء الرابع ، chap. VIII.

(٢) يتخذ رابليه هذا الموضوع العادى كذريعة لأسفار بانيرج وأصدقائه ، مثله مثل جميع كتاب تلك الحقبة من الزمن التى تصور شغف المعاصرين بالسفر وبالتنقل ، وكذلك فهذا =

الإطار يصور لنا رابليه شخصيات كثيرة مثل رجال اللاهوت والبروتستانت والطبيب والفيلسوف والشاعر ورجل القانون . . . ولا يتورع من نقدها كلها دون رحمة أو كلل .

تتلخص فلسفة رابليه إذاً فى بضع نقاط أهمها حبه للحياة والمعرفة ، وهى تتميز بالمرح ولا تهاجم إلا النفاق وضيق الأفق وعدم التسامح . فيما عدا هذا فرابليه يؤمن كل الإيمان بالإنسان وبطبيعته النبيلة الخيرة ، مثل ما نراه بعد ذلك فى أعمال فيلسوف القرن الثامن عشر جان جاك روسو .

أما عن فن القصة عند رابليه فهو فن فريد لا مثيل له فى تاريخ الأدب الفرنسى ، فرابليه من الأدباء النادرين الذين يستطيعون تصوير الشخصية فى أقل عدد من الكلمات . هكذا يصور لنا حياة الريف وحياة الرعاة فى عصره ، كما يبين لنا فى أدق صورة حالة القحط الشديد الذى عانت منه البلاد فى فترة دقيقة من تاريخها ، ويقول مثلاً إن المنطقة كلها كانت قد توقفت عن الحياة مثل الباخرة التى قد ألقت بمرساها . «Toute la contré etait à l'ancre» [1] . وهى صورة فى غاية البلاغة ، كما صوّر لنا كذلك حوارى باريس التى يجوبها اللصوص والحراس ، وكذلك كل ما يصدر من أصوات فى معركة حربية وسط

= الموضوع ذريعة أخرى لرابليه كى يصف جميع الفئات التى تكون المجتمع الفرنسى فى القرن السادس عشر .

(١) رابليه **Pantagruel** الجزء الثانى **chap. II** .

الحقول أو فى الصحراء ، وأصوات عاصفة هوجاء تؤرجح السفينة فى وسط البحر . لذلك يمكننا أن نؤكد أن رابليه يعدّ من أحسن كتّاب القصة فى فرنسا ، فهو يعطينا إحساساً بالحياة وبالحركة ، لأنه يمتلك أقيم وأدق أدوات تعبير لفنان أو مصوّر يرسم لوحات ناطقة بالحياة . فنحن نرى قصة رابليه المكونة من خمسة أجزاء[١] ، مليئة بالصور الجميلة بألوانها وبحركتها ، وبالصفحات السلسة السهلة ، التى تتوالى بنفس سرعة تتابع المشاهد فى السينما الحالية ، تلك الصفحات التى تجعل من كاتبها أديباً عظيماً وساحراً جذاباً مرحاً ، تنبئ ضحكاته ونكاته عن إرادة صلبة نحو تغيير وإصلاح المجتمع الذى يعيش فيه . فالضحك هو الوسيلة الوحيدة الفعّالة التى تفيق القراء من سباتهم العميق ، وتزحزحهم بعيداً عن سلبيتهم ، وتحثهم على الرؤية الواعية . هذا الضحك عنوان لتفاؤل رابليه المطلق وإيمانه العميق بالإنسان وبقيمته .

٢ – مدرسة الشعراء السبع La Pléiade وخلق النُموذج المثَالى للتعبير .

أما الجزء الثانى من القرن السادس عشر فتسود فيه فكرة البحث عن

---

(١) قد يكون الجزء الخامس الذى لم يظهر إلا بعد سنوات من موت رابليه لكاتب آخر أراد أن يتمّ كتاب رابليه . لذلك فلم يستطع النقاد تحويل الشك إلى يقين وظلوا يتساءلون عن كاتب هذا الجزء الأخير وعن اسمه .

المثال الأكمل للتعبير ، تلك الفكرة التى تبشرنا بمولد الكلاسيكية فى الأدب أو مبدأ الكمال والتوازن . فقد ظل الفرنسيون على تعلقهم بالقدماء اليونانيين والرومانيين ، حتى إنهم اعتبروا كل ما هو قديم "Antique" مثالاً لجمال التعبير والذوق الرفيع فى كل الفنون ، سواء فى الرسم أو فى النحت أو فى الأدب .

وقد تكونت مدرسة الشعراء السبع ، La Pléiade لتهاجم مفهوم الشعر السائد حتى هذا الوقت وعلى الأخص لتهاجم شاعراً محظوظاً مقرباً من البلاط هو كليمان مارو Clément Marot وهو من أهم شعراء البلاغة Les Rhétoriqueurs – وهو الاسم الذى كان يطلق على شعراء هذه الفترة من تاريخ الأدب الفرنسى ويعيب الشعراء السبع ، أو مدرستهم على وجه الخصوص ، على شعراء البلاغة اهتمامهم الوحيد بتجويد الشعر ، حتى إنهم أفقدوه أية معان مؤثرة . فقد كانوا يعشقون أساليب العصور الوسطى فى الشعر الملىء بالألغاز وبترديد قافية واحدة مملة فى كل القصيدة ، حتى ولو كانت مكونة من نفس الكلمة ذاتها . هكذا نظم مارو على وجه المثال خطاباً شعرياً وجهه للملك مكوناً من ستة وعشرين بيتاً ، فى كل منها تتردد كلمة "Rime" بكل أشكالها ، مرة كفعل ومرة كاسم ومرة كصفة . . . وكانت هذه الطريقة تعتبر مثال الفن والرقة فى الشعر . أما عن الموضوعات التى كانت تسود فى أعمال هؤلاء الشعراء ، فهى تدور حول أحداث واقعية قد تكون تافهة مثل حادث سرقة ، أو طلب معونة

مالية جديدة من ولى نعمة الشاعر . . . وهكذا . . . ولو أننا لا يمكننا أن نغفل جمال بعض هذه القصائد ، وعلى الأخص بعض قصائد مارو ، فإننا نقدر ما جاءت به المدرسة من أفكار جديدة ، سمت بالشعر والشعراء إلى الطبقات العليا . فقد أدخل الشعراء السبع تلك المواضيع التى ستصبغ الشعر الفرنسى بالرومانسية ، والتى سترتفع به إلى ما وصل إليه بعد ذلك . فقد تحول غالبية الشعراء إلى طرق موضوعات أجلّ وأسمى ، فبدلاً من أن يتغنوا مثلاً بكرم الملوك والأمراء ، أصبحوا يتغنون بالعواطف النبيلة ، مثل الإعجاب بمظاهر الطبيعة الخلابة ، أو الحب ، أو عبادة الله فى مخلوقاته كما علمتهم مبادئ البلاتونية الجديدة . ثم أدخلوا مادة جديدة تبين عمق أفكارهم ، ألا وهى قصر الحياة وكرّ الأيام والخوف من الموت ، فأدخلوا بذلك فى الشعر قيماً فلسفية عميقة أعطت له مقاماً أسمى وأنبل .

ومن ناحية أخرى ، فهذا التحول منطقى فعلاً ، بعد أن ساد منذ بدء القرن السادس عشر روح التعطش للعلم ، وبعد أن تبحّر الفلاسفة والمفكرون فى كتابات القدماء مثل أرسطو وعلى الأخص أفلاطون ، الذى لاقت أفكاره إقبال الكتاب جميعاً ، وعلى الأخص الشعراء وهم يتكلمون عن الحب الذى تأثرت به فلسفة أفلاطون ، والذى تغنى به الشعراء الإيطاليون قبل الشعراء الفرنسيين .

فى أواسط القرن السادس عشر ظهر الحماس والانطلاق فى مجال

الشعر ، تلك السمات التى صبغت الأدب فى عهد الملك هنرى الثانى ، ابن الملك فرنسوا الأول ، بين سنة ١٥٤٧ وسنة ١٥٥٩ (والتى نجدها فى أحسن صورة فى أيام الصراع الرومانسى مع هوجو Hugo ولا مارتين Lamartine, وموسيه Musset, وغيرهم فى أوائل القرن التاسع عشر) .
وإذا كان الملك هنرى الثانى مختلفاً عن أبيه من حيث تعلق الأخير بالفنون والآداب فإننا نرى أن أخت هنرى الثانى الأميرة مارجريت دى فرانس Marguerite de France وزوجته الملكة كاترين دى ميديس Catherine de Médicis سوف تقومان مقام فرنسوا الأول فى هذا المجال ، وعلى الأخص الملكة كاترين التى نشأت فى مدينة النهضة الإيطالية Medicis . . . وقد طالب الجمهور الفرنسى المتأثر بجو البلاط من الشعراء الجدد التكيف بهذا الجو وتجديد الشعر بحيث يعيد إلى أذهانهم ، هذا الجمال والعمق والتأثر الموجود عند الشاعر بترارك Petrarque وغيره من الشعراء الإيطاليين .

لذلك بدأت مدرسة الشعراء السبع بثّ هذه الروح فى شعرائها ، لمحاولة رفعهم إلى مصاف الملوك والقادة الذين يمكنهم التأثير والضغط على الشعوب [1] . فالشاعر فى نظر هذه المدرسة مبعوث العناية الإلهية فى

---

(١) لذلك سمح الشاعر دوبليه Du Bellay لنفسه أن يكتب ما أسماه (حديث شامل للملك » "Ample discours au roi" فى سنة ١٥٦٧ بيّن له فيه ما يجب أن يؤمن به الحاكم الذى يتوق إلى نشر الوفاق والتسامح فى بلده – لذلك فقد طالبه بتخفيض الضرائب على =

الأرض ، وهو فى نفس الوقت النبى المختار الذى يربط الله بمخلوقاته . يبعدنا هذا المنطلق عن شاعر البلاغة الذى يظن أن مهمته تتلخص فى تسلية وربما إضحاك الجمهور . أما وفقاً لنظرية هذه المدرسة الجديدة فإن مهمة الشاعر ليست فى تسلية القارئ فحسب ، وإنما هى فى هز مشاعر القراء والسمو بهم إلى أعلى درجات الكمال . فالحب هو الذى يقود الإنسان للأعمال الجليلة ، وهو الذى يحثه على الفضيلة والشجاعة ، بل أكثر من ذلك ، فهو الذى يلهم الشاعر ويعطيه ذلك الحافز الفعّال الذى يستحوذ على الإنسان ويخرجه من سجن المجتمع ، ويدفعه للتطلع إلى الجمال ، ومن ثم إلى الخالق الجبار . هذه العاطفة الجليلة قد ظهرت وتجلت فى الأدب بهذه الصورة الرائعة منذ صدور قصة تريستان وايزوه حيث يصمد حبهما بالرغم من كل العوائق التى يضعها لها المجتمع والتقاليد السائدة . وبالرغم من رفض تلك المدرسة الجديدة لكل ما يتعلق بالعصور الوسطى ، فقد أبقت على ضرورة تمجيد الحب وتأليه المرأة . ومن ناحية أخرى إذا كانت قصة تريستان وايزوه قد انتهت بموتهما ، فالشعراء — وقد تحققوا من حتمية الموت الذى لا يقهر — قد جمعوا بين الحب والموت ، أى بين ما يحلق بالإنسان إلى الآفاق السماوية وبين المصير المحتوم الذى لا مناص منه .

= المزارعين وبإعانة رجال الكنيسه والفقراء وكذلك الشعراء المساكين . كما كتب رونسار قصيدة عن واجبات الملك وأخرى أسماها «شكوى فرنسا» وغيرها .

وقد أخذ الشعر فى هذه الفترة طابعاً مميزاً جديداً ، فهو يتسم بطابع المثالية والخيالية معاً اللذين يميزان طبقة الارستقراطية وحدها ، ولا يفهمها بالتالى الشعب الجاهل الذى لا يهتم إلا بالماديات . لذلك فإن الشعر - وهو موجه لرجل البلاط الفرنسى وللأمراء والنبلاء وحدهم - قد اكتسب هو الآخر نفس طابع الإرستقراطية . وإذا كانت القصائد قديماً تتلى أو تغنى فى الموالد وفى الأسواق ، فمع انتشار الطباعة أصبحت القصائد تكتب لتقرأ ، واهتم لذلك الشاعر بصياغتها صياغة جميلة وأرهق نفسه فى البحث عن الكلمة اللائقة والقافية السهلة والإيقاع المحبب للأذن . هكذا أحيا الشعراء تلك القصائد التى أطلق عليها النقاد اسم القصائد الغنائية Poesie lyrique أى التى كان الشاعر أصلاً يغنيها بمصاحبة قيثارته - والتى كانت تتميز بإيقاع جميل وبمعان سامية ، واضمحلت فى نفس الوقت القصائد الملحمية أو الشعر القصصى Poésie épique (ولو أن رونسار كتب ملحمة شعرية وطنية أسماها La Franciade ، أرادها فى أهمية الإلياذة L'Iliade ولكنها لم تنجح للأسف) وكذلك فقد قلّت القصائد الرمزية Poésie allégorique حيث تكون الزهرة مثلاً رمزاً للحبيبة الغالية فبهذه الصورة اهتم شعراء هذه المدرسة بكتابة الشعر مضموناً وشكلاً وأعطونا أجمل القصائد الفرنسية التى ما زالت تهزّ مشاعرنا حتى الآن .

تكونت مدرسة الشعراء السبع فى منتصف القرن السادس عشر ،

وأهم مؤسسيها هما بير رونسار Pierre Ronsard ، ويواقيم دى بولليه Joachim du Bellay ومع أن أولهما هو الذى نال أكبر قسط من الشهرة فى حياته فلم يكن شعر دى بولليه أقل من شعر رونسار مستوى وجمالاً : أما بقية الشعراء السبع فهم يونتوس دى تيار Ponthus de Tyard . باييف Baif ، بلتير Peletier وبللو Bélleau وجوديل Jodelle ، وهم أقل من المؤسسين الاثنين رونسار ودى بولليه شهرةً ، سواء فى حياتهم أو بعد مماتهم ، وحتى الآن ، فهم لا يُذكروا إلا أنهم ضمن هذه الجماعة المشهورة .

أما رونسار ، وهو الذى يجسّد بالفعل رجل البلاط الأمثل على حسب كاستليون ، فقد عاش فى بلاط الملك هنرى الثانى ، ثم فرنسوا الثانى ثم شارل التاسع ، واكتسب خبرةً كبيرةً فى الحياة وفى معاملة الناس ، حتى إنه نال باعتراف الجميع لقب «أمير الشعراء» Le Prince des poêtes طول حياته . ولكنه ، مثل كل عباقرة العالم ونوابغه ، كان ضعيفاً من الناحية الصحية وقد أصيب فى شبابه بعاهة أفقدته السمع تدريجاً ، وحرمته من مهنة الفروسية ومن مهنة الكهنوت[1] ، وجعلته يربع فى أحضان الفن ويحلم بأكاليل المجد الخضراء"Le vert laurier"وقد نال رونسار هو وصديق عمره دى بولليه

---

(١) مع أن رونسار لم يكن يوماً رجل كنيسة إلا أنه كان يستفيد من دخل كنسى . لذلك فإن ولاءه كان مضموناً طول الوقت للكنيسة ورجالها .

وصديقهما بابيف قسطاً وافراً من التربية الجديدة التي ينادى بها مذهب الإحياء تحت إشراف العلاّمة دورا Dorat الذى لقنهم اللغة والآداب اليونانية وأسرار وأساطير قدماء اليونانيين La mythologiegrecque التي تسود شخصياتها من الآلهة وأنصاف الآلهة فى آداب العالم حتى الآن ، مثل أوديب وفينوس وجوبيترو مينرفا وغيرهم . لذلك فيمكننا أن نعذر رونسار ودى بولليه لما بهرهما من أساطير الأقدمين فى فترة حياتهما الأولى . ولكن مع ممارستهما للشعر اكتشفا أن أهم ما قد يصل بهما إلى المجد ليس هو تشبثهما بتلك الشخصيات والصور القديمة بل هو تمسكهما بالبساطة التي تجذب القارئ وتخلب لبه . هكذا أعجب الجميع بدواوين رونسار التي أعيد طبعها أكثر من مرة حتى سنة ١٥٦٠ عندما طبعت تحت إشراف رونسار نفسه . وتقسم قصائد رونسار إلى أربعة أجزاء أهمها الديوان الذى يتغنى فيه الشاعر بالنساء اللاتى أحبهن فى حياته فى حياته ، وهما مارى وهيلين وغيرهما ، وهى القصائد التي خلدت رونسار حتى الآن والتي كانت السبب المباشر فى حثّ الرومانسيين على ترديد أفكاره وعلى تحويل الشعر إلى ما انتهى إليه فى ذلك الحين . إن قصائد الحب هذه هى التي خلدت رونسار واسترعت انتباه وإعجاب النقاد حتى الآن ، وهى تدور حول غرامياته ، وهو يبث فيها نجواه لحبيبته التي يشبهها بالوردة الجميلة الخلابة ، ولكنه يحذرها من أن تذبل وتموت مثل هذه الوردة ، ويحثها إذاً على التمتع بالحياة والحب قبل فوات الأوان .

هذه على سبيل المثال قصيدة تُعدّ من أجمل ما كتب رونسار والتى يمكننا لو أردنا أن نلحنها ونغنيها فعلاً[1] كما لحّن المغنى الفرنسى الشهير الآن إيف مونتان Yves Montand

قصيدة أخرى لرونسار عنوانها[2] Quand vous serez bien vieille

أما القصيدة التى اخترناها هنا[3] Mignonne, allons voir si la rose

فهى تقول :

«يا صغيرتى ، هيا نرى الوردة . . .

التى أبانت هذا الصباح ، تحت الشمس رِدَاءها الأحمر .

هل أسقطت هذا المساء

طّياتً فستانِها الأرجوانى .

ولونَها صِنَوبَشرَتكِ الجميلة ؟

واحسرتاه ! انظرى ! فى هذا الوقتِ القصير .

يا صغيرتى ، قد ألقت الوردةُ على الترابِ .

وا أسفاه ! كلَّ جمالِها .

يا للطبيعةِ القاسية !

---

(١) قد لحنت بالفعل هذه القصيدة فى حياة رونسار وكانت ترددها كل الشفاه فى داخل البلاط الملكى .

(٢) رونسار : Sonnets pour Hélène, livre II.

(٣) رونسار ، Odes I, 17.

آهٍ لتلك الوردةِ الجميلة التى لا تعيشُ .
إلا بين صباحٍ ومساء .
صدقينى إذاً يا صغيرتى ،
أنتِ فى زَهرَةِ العمرِ .
وفى خُضرَتِهِ المتجددة ،
اقطفى شبابَكِ قبلَ أن يأتىَ عليه العمر .
كما قضى على الوردِة الناضرة . » .

هكذا نرى هنا صدى فلسفة العصر ، التى تطلب من الإنسان التمتع بالحياة والتعلق بها ، والشعراء فى هذا المجال يرددون أقوال المفكرين والفلاسفة الذين أشاروا إلى حتمية الموت . لذلك يصطبغ شعر تلك الفترة لا بالحزن والكآبة ، ولكن بشعور يغلب عليه الرضا والخضوع وحتى بعض العذوبة أيضاً . وبما أن الشاعر هو النبى المختار فهو دائم دوام شعره الذى سيتغنى به العالم دائماً أبداً . وقد أدَّى ذلك إلى أن يظهر فى الشعر أحياناً استعلاء الشاعر وترفعه وكبرياؤه لدرجة قد تثير القارئ الآن .

وإذا كان شبح الموت هائماً فى قصائد هذه المدرسة ، فتلك الصورة ليست بغيضة ومتشائمة بتاتاً ، فالموت ، على حسب الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، ما هو إلا الطريق إلى الله عزّ وجلّ . لذلك فنحن لا نعجب إذا قرأنا هذه القصيدة الجميلة التى صوّر لنا فيها الشاعر دى بولليه كل

معتقداته ، والتى يظهر لنا فيها الموت وكأنه غاية الإنسان التى يسعى إليها .
عنوان هذه القصيدة هو : L'Idée [١] أى الفكرة أو على الأصح الصورة أو الرمز .

وهو يقول فيها :

« لو أن عُمرنا ليسَ إلا نهاراً واحداً بالنسبةِ للخلود ، لو أن السنةَ التى تدورُ تذهبُ بأيامنا دونَ رجعة ،

لو أن الإنسانَ مصيرُهُ الفناء . . .
يا أيتها الروحُ الحبيسة ، فيم الفكرُ إذاً ؟
لِمَ تفضلين ظُلمةَ العَيْشِ .
وَأنِت تمتلكين أجنحَةً .
تقودُك ، لو أردتِ ، إلى بلادِ النورِ ؟
هناك الخيرُ الذى تصبو إليه كلُّ نفس . . .
هناك الراحةُ التى نتوق إليها . . .
هناك الحبُ والهناء .
هناك ، يا أيتها الروح ، ستحلقين إلى العلا ،
وستلتقين بالله .
الذى أعشَقُ هنا صورَتَه . . . » .

---

(١) دى بولليه ، Sonnets, 113.

أليس فى هذا الشعر مزيجاً من فلسفة الإغريق القدماء ومن روح الديانة المسيحية ؟

هذا ومن ناحية أخرى ، فمن أهم ما أنجزته مدرسة الشعراء السبع ، هو خلق روح الوطنية والقومية فى هذه الفترة . فلم تكن قد حدثت بعد تلك التفرقة بين الجنسيات المختلفة ، إذ أن اللغة السائدة التى كانت تربط بين جميع بلاد غرب أوربا ، هى اللغة اللاتينية الموحدة ، كما أن تاريخ المنطقة كلها فى نفس هذا الوقت كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً . ولكن فى القرن السادس عشر بدأ بالفعل التمييز بين كل بلد وآخر ، ونشأت القوميات المختلفة ، واهتم الناس بالتالى بالبلد الوحيد الذى ولدوا وترعرعوا فيه ، كما اهتموا بتشجيع المخاطبة والتداول وحتى الكتابة باللغة القومية – إن لم تكن باللغة الإقليمية . هكذا أثار الفلاسفة والكتاب الفرنسيون حب الناس لفرنسا وتعلقهم بها ، وتبنى الشعراء أيضاً هذه الظاهرة ووضعوا نصب أعينهم التغنى ببلادهم الجميلة وتمجيد لغتهم الفرنسية الناشئة كذلك .

وإذ كان دى بولليه هو صاحب الكتاب الوحيد الذى أورد به القواعد والأسس المتعلقة باللغة الفرنسية والشعر ، والتى كان يرى أن يلتزم بها أهل الأدب والشعر ، فلا عجب إذاً أن يكون هو أيضاً صاحب النشيد الذى قد يُعتبره الفرنسيون فى مقام نشيدهم الوطنى La Marseillaise ، هذا النشيد أو هذه القصيدة ، يقول دى بولليه فى

مطلعها : . . . France, mère des arts [(١)] وقد كتبها الشاعر وهو يبكى فراق بلده من منفاه ، إيطاليا . وهو يقول فيها :

«فرنسا ، يا أمَّ الفنون والحروبِ والشرائع ،
ما أكثر ما أرضعتِنى من ثديِك .
غير أنى الآن ، مثل الحَمَل الذى يناجى أمَّه ،
أملأ أجواء الكهوفِ والغاباتِ باسمِك .
وإذا كنتِ يوماً قد حَنَوْتِ علىّ ، فَلِمَ لا تجيبيننى الآن أيتها القاسية ،
فرنسا ، يا فرنسا ، ردّى على صرخاتى الباكية .
إنى لا أسمع إلا صَدَى صوتى الحزين .
أهيمُ فى السهولِ بين الذئابِ الكاسرة . .
وأحسُّ قدومَ البردِ الذى أخافه .
وا أسفاه ! إن الآخرينَ فى قطيعِك لا تنقصهم المراعى ولا يخافون الذئابَ والرياحَ والصقيع ،
هذا كله برغم أنى لم أكُ يوماً أسوأ من فيهم ! » .

كذلك يتجلى حب الشعراء لبلدهم فرنسا فى حبهم للطبيعة الفرنسية وفى وصفهم لمقاطعاتهم الجميلة وللبلدان التى عاشوا فيها . لذلك فنحن نجد عندهم أول قصائد فرنسية تتغنى بجمال الطبيعة ، وتصف عناصرها باهتمام وإعجاب وحب .

---

(١) دى بولليه . Regrets. IX.

وهكذا لم يكف رونسار Ronsard عن تصوير وتخليد مقاطعته Vendôme التى تأكد فيها من اتصاله لأول مرة بآلهة الشعر les Muses بين الحقول الجميلة ووسط خضرتها اليانعة . وقد تغنى أيضاً بطيور تلك المقاطعة جميعها ، وأهدى إلى الحطّاب قصيدة من الشعر تتسم بالرقة والجمال الرصين يدينه فيها لعدوانه على حياة الطبيعة بقطع أشجارها الغالية ، التى يشبهها رونسار بآلهة تعيش وتتألم وتجرح وتموت . وتعد قصائد رونسار ودى بولليه هذه صحوة للفرنسيين أمام الطبيعة التى لم يكونوا قد استمتعوا بجمالها حتى هذه الفترة ، والتى سوف يمجدها بعد ذلك الكاتب الفرنسى الشهير جان جاك روسو فى القرن الثامن عشر عندما يصف مشاعره المتباينة التى تشاركه فيها تلك الطبيعة الحنون ، فإذا كان سعيداً ،كانت الأشجار والزهور فى بهاء وفرح ، أما إذا كان تعساً لبعده عن حبيبته ، فالسماء تبكى وتنوح . . . وكانت هذه بشائر الرومانسية التى ستسود بعد حوالى ثلاثة قرون من موت رونساروددى بولليه وبعد حوالى خمسين عاماً من موت عاشق الطبيعة روسو .

ونحن نجد أهم مبادئ مدرسة الشعراء السبع وأفكارها فى وثيقة خطيرة كتبها دى بولليه وأسماها Dèfense et illustration de la langue française أى حماية وإشهار اللغة الفرنسية ، يدافع فيها دى بولليه عن تلك اللغة التى ظلت لفترة طويلة تعتبر لغة عامية لا يسمح للكتاب بممارستها فى أى موضوع

جاد أو خطير ، وهو يدافع عنها ضد كل من يتهمها بالفقر بالنسبة للغة اللاتينية الغنية بالمترادفات .

لذلك فيهتم دى بولليه بإثراء اللغة الفرنسية وذلك بممارستها أولاً ، إذ أنه يؤمن بأن ممارسة أية لغة تغنيها كثيراً وخصوصاً لو كان ذلك بمعرفة فنيين متخصصين . وفى سبيل إثراء اللغة ، تقترح المدرسة نقاطاً كثيرة ، منها صقل الكلمات الموجودة فعلاً فى اللغة واستعارة بعض التعبيرات من اللهجات الريفية ، (إذ أنها تعدّ من أخوات اللغة الفرنسية مادامت منبثقة من نفس اللغة الأم ألا وهى اللاتينية) وكذلك استعارة بضعة كلمات فنية من مجال الحرفيين والصناع ، فتلك الكلمات يمكنها أن تعتبر ، لو استعملت ، بمثابة الكناية أو الاستعارة . فضلاً عن ذلك فيمكن للفرنسيين إنشاء كلمات جديدة مصقولة على غرار الكلمات التى قبلتها الآذان الفرنسية ، وكلمات مركبة أيضاً من صفة واسم أو من صفتين مثل aigre-doux ، أو من فعل ومفعول به مثل l'étédonne-vin ، أو Mouton porte-laine.... إلخ [١] وكذلك كلمات مشتقة من اللغتين اللاتينية واليونانية . ولكن فى نفس هذا الوقت الذى تطالب فيه المدرسة بخلق مفردات وتعبيرات جديدة ، فإن رونسار ودى بولليه يحذران الجميع من الإفراط فى هذا التجديد وهم يطالبون الفرنسيين بالاحتراس

(١) تتصرف مدرسة الشعراء السبع فى اللغة مثلما فعل رابليه عندما اشتق كلمات جديدة كثيرة أدخلها فى اللغة التى كتب بها روايته جرجا نتوا وبانتا جرويل .

والتعقل فى هذا المجال الخطير الحساس .

ونظراً لما كان يلاقيه المفكرون من اضطهاد وقسوة فى ذلك الوقت بعكس الشعراء الذين كانوا ينعمون بقرب البلاط السامى ، فقد تحمل هؤلاء الشعراء مهمة تنوير الملك ونبلائه بمشاكل العصر وتحدياته . وهكذا فقد خاض هؤلاء الشعراء مختلف المواضيع ، سياسية كانت أم اجتماعية ، حتى موضوع التسامح الدينى والبعد عن التعصب الأحمق والأعمى . لذلك نجد بينهم شعراء كاثوليك مثل رونسار ودى بولليه وشعراء بروتستانت تغنوا فى نفس الوقت بالوطن الأم الذى يتمزّق من الألم وسط تلك الحروب والصراعات العقائدية والهمجية المطلقة التى كانت تسود هـــــذه الفترة . وقد بلغت هذه الهمجية ذروتها ليلة ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ حين قام المسيحيون بقتل مواطنيهم البروتستانت فى مخادعهم ولم ينجح من المذبحة — (Massacre de la Saint-Barthelemy) إلا من قبل الرجـوع عن مذهبه واعتناق الكاثوليكية مثل الأمـــير هـنرى دى نافار Prince Henri de Navarre الذى أصبح فيما بعد الملك هنرى الرابع ملك فرنسا من ١٥٨٩ وحتى ١٦١٠ ، والبرنس دى كوندى Prince de Conde . أما الآخرون فقد اضطروا للهروب من فرنسا واللجوء إلى إنجلترا وهولندا وغيرهما .

ونحن نجد صدى لهذه الصراعات الخطيرة فى قصائد الشعراء وعلى

الأخص عند أجربيا دوبنييه Agrippa d'Aubigné الشاعر البروتستانتي ، الذى عرف كيف يبكى الفرنسيين ويشعرهم بالخزى من تلك الأعمال الهمجية الوحشية . فى قصيدته الشهيرة «فرنسا أيتها الأم الثكلى[1] » – France, mère affligée – بين لنا تمزق فرنسا بفعل أبنائها المتخاصمين ، وصورها بأم ترضع طفليها ولكنهما يتنازعان على لبنها حتى يدميانها فلا يسعها هى بعد ذلك إلا إرضاعهما من دمها بعد أن نضب لبنها الذى خالطته الدماء .

٣ – الثلث الأخير من القرن السادس عشر :

تبدأ تلك الفترة الدقيقة بوثيقة الفيلسوف Montaigne مونتيني التى يبين فيها مدى إيمانه بالإنسان وحبه العظيم للحياة ، وفيها يجهر بحماس قائلاً فى إحدى صفحات كتابه «التجارب» أو «المحاولات» Les Essais : «أما أنا فإنى أحب الحياة»[2] – "Quant à moi, j'aime la vie."

يؤكد مونتيني بهذا الشعار إيمانه بجوهر فلسفة الإحيائيين les Humanistes, وعقائدهم التى تخلص فى أن الدنيا لم تخلق إلا من أجل الإنسان وحده ولتهيئة السعادة والرفاهية له ، وهذا هو مدلول

---

(١) اجربيا دوبينيه . Miseres, I, (v. 97—130).

(٢) مونتيني . Les Essais, III, XIII.

عقيدة الفيلسوف الإحيائى التى يؤمن بها ولا يكفّ عن التعبير عنها فى كل مناسبة .

وبالرغم من ذلك الشعار الذى يدين به مونتينى Montaigne، فإنه يولى ظهره أحياناً للمفكرين الذين سبقوه فى هذا المضمار ، ويتشكك فى كل ما وصلوا إليه من حيث تقديرهم العظيم للإنسان ولقدراته التى يظنونها خارقة . فقد اكتشف مونتينى أن تحرير الإنسان من كل قيد أو قهر قد يؤدى به إلى استعباد من نوع آخر ، وهو الاستعباد الفكرى . وهو يفرق أيضاً بين مجرد تحصيل عناصر المعرفة وبين التطبيق العقلى لها ، ذلك أن العقل هو الأداة التى تتبلور بها الأفكار المجردة إلى الواقع الملموس والنتائج الإيجابية . ويقنع مونتينى فى هذا الصدد بألا يتجاوز العقل القدرات المتواضعة للطبيعة الإنسانية .

ويرى مونتينى أن الدروس التى يأخذها الإنسان مصدرها الحياة نفسها والأحداث التى تعترضها ، وليست الكتب والأبحاث . فهو يوصى قراءه النبلاء ورجال البلاط بالتأمل والملاحظة والتجربة ، أكثر مما يوصيهم بالقراءة التى لن تفيدهم بقدر ما يكتسبون من خبرة ومعرفة من الحياة نفسها ومن التنقل والأسفار . فالسفر هو الفرصة الوحيدة التى تسنح للإنسان لمقارنة أحواله بأحوال الآخرين ، وكذلك بمقارنة القوانين والعادات والمعتقدات السائدة فى مختلف أنحاء العالم .

وإذ كانت موجة الأسفار الكثيرة التى سادت فى أوائل القرن ، قد

ساعدت على إيجاد نتائج مفيدة ، استخلص منها الفلاسفة وحدة الفكر فى كل بقاع الأرض ، فإن مونتينى ، الذى كان مولعاً بالسفر والتنقل مثلهم ، لم يصل إلى مثل هذه النتائج ، بل إنه على العكس قد استظهر من ملاحظاته أنه ليس من الصواب أن نحكم على أى إنسان أو أية ظاهرة بأى حكم ، لأن كل هذا نسبى بحت ولا يتعلق إلا بأشياء غامضة مبهمة ؛ فما يمكن أن يعد حقيقة يقينية هنا ، قد يكون خطأ جسيماً هناك . ويؤكد مونتينى أنه لم يعد هناك مجال للجزم بأية حقيقة كانت أو لتفضيل فلسفة على الأخرى ، فكلها خاطئة ، رهن الخيال لأنها نتاج عقلية الإنسان المتغيرة . هكذا ابتدع مونتينى قلادة رسم عليها ميزاناً تعادلت كفتاه اللتان ترمزان لكل الفلسفات التى ظهرت حتى ذلك الوقت ، وتساوت جميعُها فى أنها لم تؤد بالإنسان إلى الكشف عن الحقيقة المطلقة التى يبحث عنها . وقد أفنى مونتينى حياته بحثاً عن تلك الحقيقة التى كان يحلم بها والتى ظن أنه ، إن لم يجدها فى أفكار الفلاسفة وفى كتاباتهم ، فهو واجدها – لا محالة – فى داخله وفى أعماق نفسه .

لذلك يرى مونتينى أن الحكيم هو من يدرس خبايا نفسه التى لابد ستهديه للحقيقة الصعبة المنال . وإذا كان مونتينى كبقية فلاسفة عصر النهضة ، مولعاً بقراءة كتابات القدماء ، فلم يكن ذلك مرده حبه للعلم مثل رابليه أو غيره من المتحمسين ، وإنما لأنه من الجائز أن تساعده هذه القراءات فى تلك المهمة التى أخذ على عاتقه أن يكرس حياته من أجلها

ألا وهى الكشف عن تلك النفس الدفينة الخفية .

وقد لا تتنافى هذه الأفكار مع فلسفة الإحيائيين les Humanistes السائدة فى عصر النهضة ، فمونتينى لم ينس الإنسان ، بل إنه على العكس قد أقام منه حكماً متسلطاً على العالم . ولكن فلسفته تختلف عن فلسفة الـ Humanistes فى أنها تتمركز حول نفس وروح هذا الإنسان برؤية أعمق وأدق . فالذى يهمه فى هذا الكائن هو خبايا نفسه وخوالجه ، فالنموذج الصغير –Microcosme – (الإنسان) ، هو بذات تركيب النموذج الكبير –Macrocosme– (العالم) ، ولذلك فإننا إذا ما تبينا دقائق ما فى هذا النموذج الصغير ، لكشفنا عن خبايا العالم الغامضة .

ومن خلال كتاب مونتينى الوحيد Les Essais الذى ظل يكتبه سنوات طوالا نرى نتاج تفكيره فى هذا المجال . ونحن لا نجد فى تلك الصفحات ما يخرج عن نطاق شخصية المؤلف نفسه ، فهو يؤمن بأن الفرد ، أيًّا كان ، صورة للإنسانية جمعاء أو مرآة تعكس البشرية كلها . وهو يقول فى مقدمته إنه هو وحده موضوع أبحاثه ، وإن القارئ لن يجد فيها أية شخصية أخرى أو أية اهتمامات تخرج عن نطاق مونتينى نفسه . هكذا ابتدع كاتب « Essais « أنا » أو « الذات » فى الأدب ، تلك الشخصية التى سوف يرفضها بعده الفيلسوف الفرنسى باسكال Pascal رفضاً باتاً والذى سوف يمحوها من أى كتاب طوال قرن من

الزمان حتى تعود فتطفو ثانية مع جان جاك روسو فى منتصف القرن الثامن عشر. ونحن نجد صدًى لهذا التغيير فى تلك الجملة التى قالها باسكال[1] Pascal فى أوائل القرن السابع عشر مقيماً بها فلسفة مونتينى وهى «تلك الخطة الحمقاء التى جعلت مونتينى لا يهتم إلا بوصف نفسه . . » والتى ظلت تتردد عن مونتينى خلال قرنين من الزمان حتى أنصفه فولتير Voltaire فى القرن الثامن عشر بقوله : «تلك الخطة الساحرة التى جعلته لا يصف إلا نفسه ، وبهذه الطريقة الساذجة وصف لنا الطبيعة الإنسانية كلها» .

"Le charmant projet qu'il aveu de se peindre naivement, comme il a fait. Car il a peint la nature humaine." Voltaire

هذا هو إذاً نتاج تفكير مونتينى طوال حياته ، وتلك هى خلاصة أفكاره وتأملاته فى برجه العاجى الذى كان ينفرد فيه بنفسه ساعات طوالا . هكذا نرى أن مونتينى قد تجاوز بالفعل زمانه — الذى كان لا يهفو إلا إلى جمع المعلومات ، وذلك بحثه القراء على أن يعكفوا على ذات نفوسهم وأن ينكبوا على دراستها حتى يمكنهم أن يطوروها وفق إرادتهم لا وفق معلومات حصلوها هشة واهية .

لم يصل مونتينى إلى هذه النتيجة مرة واحدة ، بل تخبط كثيراً وسط الفلسفات السائدة المعروفة كلها . ويمكننا أن نميز فى حياته أربع مراحل

(١) "Le sot projet que Montaigne a de se peindre." Pascal.

لتفكيره ولفلسفته التى آل إليها فى أواخر حياته .

فكتاباته أو « تجاربه Les Essais كما أسماها هو ، تصور لنا تلك المراحل أحسن تصوير فقد بدأ حياته فعلا كمسيحى متعلق بدينه وبعقيدته ، لذلك فقد قرر أن يكرس سنوات طوالا من حياته لترجمة كتاب لاتينى لفيلسوف وطبيب إسبانى ريمون سيبون ، Raymond Sebond من القرن الخامس عشر ، بهدف إرضاء والده المسيحى المتعصب وليحاول أن يفند حجج المتشككين من وجود الخالق الجبار . أخذ مونتينى على عاتقه تقديم وتبسيط أفكار هذا الفيلسوف الإسبانى لتوضيحها للفرنسيين الذين قد يملّون قراءة هذا الكتاب العويص أو ينفرون منه لصعوبته ولمشقة تتبع البراهين التى يقدمها الكاتب الإسبانى . هكذا قدم مونتينى فى حوالى مائتين من الصفحات ضمن كتابه Les Essais ، هذا المؤلف اللاتينى المكون من ألف صفحة ، بعد أن صقله وضمنه الكثير من انطباعاته ومعتقداته الشخصية ، وكل ما تعلمه من صديق عمره الوفى La Boetie لابويسى[١] الذى خطفه الموت بعد أن قضى حياة مثالية ومات ميتة المؤمن الورع .

وهكذا ، بعد تلك الفترة المؤمنة ، اعتنق مونتينى ، وبفضل صديقه هذا ، مذهب « زينون » – "SToicisme" ، وهو مذهب متطرف ينادى

---

(١) وقد ظلت تضرب بصداقة مونتينى ولا بويسى الأمثال لمدة طويلة لعمق عواطفهما ولتعلقهما الشديد بعضهما ببعض .

بتغلب الإنسان على مصيره المحتوم وهذا ليس بمجرد الاستسلام والرضا وإنما بالثبات وبرباطة الجأش ، فالعقل البشرى يمكنه أن يسيطر على الآلام وأحكام القدر . لذلك كان شعار مونتيني ، منذ هذا الوقت ، وهو نفس شعار أتباع زينون وهو أن واجب الفيلسوف الأول هو أن يتعلم كيف يموت ، فهذا يكسبه صلابة وحزماً ورباطة جأش أمام أحداث الزمن ومصاعبه .

يطالب إذاً مونتيني بهذه الفلسفة أن يرتفع الإنسان إلى مصاف الآلهة التى تسمو عن كل آلام البشرية وعذابها . تلك الأفكار هى التى ستعطى فيما بعد للكاتب المسرحى الفرنسى الشهير كورنيي – Corneille فى أوائل القرن السابع عشر ، طابع العظمة والكبرياء والكرامة الذى اشتهر به فى مسرحياته الخالدة والتى يظهر فيها البطل والبطلة كمثال للشجاعة والحزم .

يمر بعد ذلك مونتيني بفترة تشكك فى كل شىء تصورها تلك القلادة التى سبق أن تكلمنا عنها ، والتى تبين مونتيني كرجل يرفض كل ما سبق أن أكده الفلاسفة السابقون .

ولكن هذا التشكك لا يصبغ مونتيني بصبغة السلبية ، فهو يخرج من هذه الأزمة وكله أمل فى ممارسة الحكمة بأجل معانيها ، تلك الحكمة التى أمكنه أن يستخلصها من الحكم الشعبية الساذجة والصادقة فى آن واحد ، ثم من المذهب الأبيقورى – Doctrine d’Epicure الذى ينصح

بالاستمتاع بالحياة وحبها المطلق (مثل رابليه ورونسار وغيرهما) ، وحتى من مذاهب الوثنيين والملحدين . فكل ما يطلبه مونتيني هو أن يصل بعقله إلى فلسفة متواضعة ، لا تقود الإنسان إلى الكمال ولا تطلب منه المستحيل ، بل تجعل منه حكيماً ، راسخ العقل ، يعرف قيمة الأشياء الحقيقية ، وتحثه على التسامح والكرم والفضيلة . لذلك يقول مونتيني إنه من الجنون أن نطالب الإنسان بالرقى إلى مصاف الملائكة ، فمن يتطلع إلى مثل هذه الدرجة من الكمال التى لا تتفق وطبيعة الإنسان الحقيقية وضعفه فطريقه حتماً إلى النقيض وهو الانحدار إلى مصاف التخلف والحيوانية[١] . ويشبه مونتيني ذلك بطموح من يريد أن يتسلق الجبال الشاهقة الوعرة ، فيسقط منها محطماً وتنتهى بهذا كل تطلعاته وآماله .

تلك هى إذاً المراحل التى مرّ بها مونتيني من حيث تعلقه بالدين المسيحى ومحاولته تبسيط أفكار سيبون Sebond الإسبانى فى هذا الخصوص ، والتى كانت تهدف إلى إثبات وجود الله استناداً على أدلة قوامها أساساً العقل البشرى . غير أن مونتيني ، وفى خضم ذلك كله ، وجد نفسه تلقائياً يرفض فكرة سيبون القائمة على أن العقل البشرى هو وحده الذى يهيئ السبيل إلى الإيمان ، ذلك أن مونتيني لم يؤمن مثل

(١) تلك هى نفس الفكرة التى قدمها الفيلسوف باسكال فى القرن السابع عشر عندما قال : "L'homme n'est ni ange ni bête, et le malheur veut que qui veut faire l'ange fait la bète." — **Pensées**, ed Brunschvig, 358.

سيبون أبداً بأن العلم والعقل هما وحدهما طريق السعادة والإيمان ، لأنهما لا يمثلان حقيقة مطلقة ولا يكرسان يقيناً كاملاً .

ومن ثم ، يرى مونتيني أن العقل خداع وأن الحواس تضللنا معظم الوقت ، وأن الإيمان لا ترسخ دعامته إلا بالقلب ، ومنه تشع راحة اليقين وثبوت العقيدة وبه يقضى على حيرة الشك اللعين . ولهذا استقبل الموت استقبالاً يليق بمن يريد أن يبرهن على عظمة الإنسان وصلابته ، وختم حياته بهذا الشعار الجديد الذى يقول فيه : «كل شىء حسن لأن الله لا يخلق إلا ما هو حسن» .

"Tout est bon, Il a fait tout bon." (1)

وهكذا كانت عودة مونتيني إلى حظيرة الله بوصفها الملجأ الوحيد للبشرية وظل يتشبث بها حتى آخر لحظة من حياته بعد أن كافح كثيراً كى يرضى عقله وقلبه فى آن واحد ، ولكنه رجح قلبه فى آخر المطاف على هذا العقل الخداع المضلل إلا أنه ، برغم ذلك كله ، فإنه لم يبق الآن ، وبعد حوالى أربعة قرون من الزمان ، من مونتيني ومن علاماته البارزة الدّالة على شخصيته سوى ما كان يعذب نفسه من الشك اللعين ، حتى خلدته عبارته الشهيرة : «ماذا أعرف ؟» "Que sais-je?" وهو شعار مذهب التشكك . — Scepticisme .

(١) مونتيني : Les Essais, III, XIII.

بهذه الصورة يختتم مونتينى عصر النهضة الفرنسية ، وكانت بعض أفكاره دعامة وأساساً لمولد مذهب جديد هو الكلاسيكية ، مذهب الاتزان والاعتدال وليس المبالغة والإفراط ومذهب الحذر والريبة وليس الحماقة والاندفاع . ذلك أن وفق أفكار مونتينى يجب أن نؤمن بعظمة الإنسان ولكنها عظمة لها حدودها ، عظمة متواضعة تواضع الإنسان نفسه ، وإن أكمل سبيل يمكن أن يسلكه الفرد هو الذى يتبعه الرجل العادى بنظامه الدقيق دون أية مبالغات . هذه هى الكلاسيكية التى سيعبر عنها موليير بعد بضع سنوات بقوله : « الحكمة الحقيقية ترفض كل تطرف ومغالاة » .

"La parfaite raison fuit toute extrémité."

٤

• تلك هى إذاً مراحل الأدب والفكر فى عصر النهضة الفرنسية ، وقد رأينا بالفعل كيف تسلط الفكر والفلسفة على أدب هذه الفترة ، حتى إننا أسمينا أكثر أدبائها مفكرين وفلاسفة شعراء كانوا أم كتاب نثر . وهذا يبين لنا كيف أن الأدب أساسه الفكر ، ثم تأتى بعد هذا مرحلة النظم والتجميل والتشكيل ، وقد اهتم عصر النهضة بكل هذا ، فحث الأديب على السعى وراء الكمال فى كل شىء والسعى وراء الدقة والوضوح كما سيبين ذلك جلياً فى العصر الكلاسيكى اللاحق الذى أعلن عنه فيلسوف النهضة مونتينى فى «محاولاته» أى فى كتابه Les Essais.

صدر من هذه السلسلة :

١ - طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ - الفضاء ومستقبل الإنسان	د. فاروق الباز
٣ - شريعة الله وشريعة الإنسان	المستشار على منصور
٤ - أسس التفكير العلمى	د. زكى نجيب محمود
٥ - عالم الحيوان	د. محمد رشاد الطوبى
٦ - تاريخ التاريخ	على أدهم
٧ - الفلسفة فى مسارها التاريخى	د. توفيق الطويل
٨ - حواء وبناتها فى القرآن الكريم	أمينة الصاوى
٩ - علم التفسير	د. محمد حسين الذهبى
١٠ - المسرح الملحمى	د. عبد الغفار مكاوى
١١ - تاريخ العلوم عند العرب	د. أحمد سعيد الدمرداش
١٢ - شلل الأطفال	د. مصطفى الديوانى
١٣ - الصهيونية	فتحى الإبيارى
١٤ - البطولة فى القصص الشعبى	د. نبيلة إبراهيم سالم
١٤م - عيون تكشف المجهول	د. محمد عبد الهادى
١٥ - الحضارة	د. أحمد حمدى محمود
١٦ - أيامى على الهوا	سلوى العنانى
١٧ - المساواة فى الإسلام	د. محمد بديع شريف
١٨ - القصة القصيرة	د. سيد حامد النساج
١٩ - عالم النبات	د. مصطفى عبد العزيز مصطفى
٢٠ - العدالة الاجتماعية فى الإسلام	أنور أحمد

٢١ – السينما فن	صلاح أبو سيف
٢٢ – قناصل الدول	أحمد عبد المجيد
٢٣ – الأدب العربى وتاريخه	د. أحمد الحوفى
٢٤ – الكتاب والمكتبة والقارئ	حسن رشاد
٢٥ – الصحة النفسية	د. سلوى الملا
٢٦ – طبيعة الدراما	د. إبراهيم حمادة
٢٧ – الحضارة الإسلامية	د. على حسنى الخربوطلى
٢٨ – علم الإجتماع	د. فاروق محمد العادلى
٢٨م– روح مصر فى قصص السباعى	حسن محسّب
٢٩ – القصة فى الشعر العربى	ثروت أباظة
٣٠ – العمارة الإسلامية	د. كمال الدين سامح
٣١ – الغلاف الجوى	د يوسف عبد المجيد فايد
٣١م– محمود حسن اسماعيل	د. عبد العزيز الدسوقى
٣٢ – التاريخ عند المسلمين	محمد عبد الغنى حسن
٣٣ – الخلق الفنى	د. مصرى عبد الحميد حنوره
٣٤ – البوصيرى المادح الأعظم للرسول	عبد العال الحمامصى
٣٥ – التراث العربى	عبد السلام هارون
٣٦ – العودة الى الإيمان	أحمد حسن الباقورى
٣٧ – الصحافة مهنة ورسالة	د. خليل صابات
٣٨ – يوميات طبيب فى الأرياف	د. الدمرداش أحمد
٣٩ – السلام وجائزة السلام	عثمان نويه
٤٠ – الشريعة الإسلامية	المستشار عبد الحليم الجندى
٤١ – ثقافة الطفل العربى	جمال أبو رية

٤٢ – اللغة الفارسية	د. محمد نور الدين عبد المنعم
٤٣ – حضارتنا وحضارتهم	د. عبد المنعم النمر
٤٤ – الأمثال الشعبية	محمد قنديل البقلى
٤٥ – التعريف بالاقتصاد	د. حسين عمر
٤٦ – المستوطنات اليهودية	حسن فؤاد
٤٧ – بدر والفتح	محمد فرج
٤٨ – الفلسفة والحقيقة	د. عبد الحليم محمود
٤٩ – الطب النفسى	د. عادل صادق
٥٠ – كيف نفهم اليهود	د. حسين مؤنس
٥١ – الفن الإذاعى	د. فوزية فهيم
٥٢ – الكتابة العربية	محمد شوقى أمين
٥٣ – مرض السكر	د. أحمد غريب
٥٤ – شوقى أمير الشعراء... لماذا ؟	فتحى سعيد
٥٥ – الفلسفة الإسلامية	د. أحمد عاطف العراقى
٥٦ – الشعر فى المعركة	حسن النجار
٥٧ – طه حسين يتكلم	سامح كريم
٥٨ – الإعلام ولغة الحضارة	د. عبد العزيز شرف
٥٩ – تاجور شاعر الحب والحكمة	على شلش
٦٠ – كوكب الأرض	د. فرخندة حسن
٦١ – السير الشعبية	فاروق خورشيد
٦٢ – التصوف عند الفرس	د. إبراهيم شتا
٦٣ – الرومانسية فى الأدب الفرنسى	د. أمال فريد
٦٤ – القرآن وحياتنا الثالثة	محمود بن الشريف

٦٥ – التعبيرية فى الفن التشكيلى	د . نعيم عطية
٦٦ – ميراث الفقراء	فؤاد شاكر
٦٧ – العمارة والبيئة	المهندس حسن فتحى
٦٨ – قادة الفكر الاقتصادى	د . صلاح نامق
٦٩ – المسرح الغنائى العربى	محمود كامل
٧٠ – الله أم الطبيعة	د . يوسف عز الدين عيسى
٧١ – بحر الهواء الذى نعيش فيه	د . مدحت إسلام

٦٤

الكتاب القادم

الحرب ضد التلوث

رجب سعد السيد

رقم الإيداع	١٩٧٨/٥٢٩٨
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٥٤٣ - X

١/٧٨/٢٨٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)